307

HARLEQUIN

روايات أحلام

إذا كنت تجرؤ!

كارول مورتيمر

www.elromancia.com
مرمورية

إذا كنت تجرؤ!

كان جوناثان ماكواير شخصاً يثير الغيظ!

صحيح أن "توري" قررت أن تضع له حداً وأن لا تتركه يتصرف على هواه. إلا أنه رفض أن يذعن لها... أو أن يتخلى عن رأيه الأول بها بصفتها إمرأة متحجرة قاسية.

هل منعت تصرفاته وازدراؤه بها. توري من الاستسلام لسحر هذا الرجل: لا... فرغم ما يظنه جوناثان بها. كانت "توري" فتاة ساذجة وغير مسلة بالخبرة الكافية لتجاربه.

لبنان،	2500ل.ل	البحرين،	1دينار
سوريا،	75ل.س	السعودية،	10ريال
الأردن،	1.5دينار	مصر،	8جنيه
الكويت،	750فلس	المغرب،	15درهم
الإمارات،	10دراهم	تونس،	2دينار
قطر،	10ريال	عمان،	1ريال

ISBN 9953-15-157-1

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The Secret Virgin
First published in Great Britain 2001
Harlequin Mills & Boon Limited
© Carole Mortimer 2001
Translation © Dar El-Farasha - 2004
ISBN 9953 - 15 - 157 - 1

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

كارول مورتيمر

«ولدت في انكلترا، وكنت الابنة الصغرى بين ثلاثة أطفال، فلدي أخوان أكبر مني. بدأت الكتابة سنة ١٩٧٨، وكتبت حتى اليوم أكثر من ١٠٠ رواية لـ «ميلز أندبون».

لدي أربعة أبناء: ماثيو، جشوا، تيموثي وبيتر، وأملك كلبة من صنف «كولي» اسمها ميرلين. زوجي أيضاً أسمه بيتر، ونحن صديقان كما أننا متحابان، وهذا يجعل علاقتنا الزوجية ناجحة تماماً».

كارول

١ - لقاء عاصف

«على السيد جوناثان ماغواير القادم من مطار هيثرو أن يتوجّه مشكوراً، إلى مكتب الإستعلامات؟».

وفيما كانت موظفة الاستقبال تذيع هذه الرسالة، كانت توري تقف بجانب المكتب مقطبة الجبين، تنتظر استجابة السيد جوناثان ماغواير لهذا النداء.

وقفت لدقائق قرب قاعة المسافرين بانتظار القادمين على متن رحلة هيثرو إلى جزيرة مان، وهي ممسكة بلوحة صغيرة كتب عليها جوناثان ماغواير بوضوح. لكن آخر راكب في الرحلة ذهب الآن من دون أيّ أثر لجوناثان ماغواير.

ربما فاتته الرحلة؟ أو ربما. . .

- أنا جوناثان ماغواير.

طرفت توري بعينيها عند سماع الصوت الأبح الجذاب ذي اللكنة الأميركية. هل هذا هو جوناثان ماغواير؟ كان في طليعة الذين غادروا القاعة وقد لاحظته لأنه كان فارع الطول. نظر إليها مخترقاً إياها بعينين رماديتين فولاذيتين فلم تستطع إلا أن تلاحظ أنه أحد أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية وغطرسة.

كان وجهه صلباً وقد لوحته الشمس وعيناه فولاذيتين، أنفه مستقيماً

www.elromancia.com

وفمه غير باسم يعلو ذقناً مربعة. كانت سترته الرصاصية وقميصه الأبيض يتلاءمان مع البنطلون الأزرق الباهت الذي يلبسه ليبرز نحول خصره ورشاقة ساقيه. قدّرت أن عمره في منتصف الثلاثينات ما شكّل مفاجأة أخرى لها فقد كانت تظنه شقيق ماديسن الأصغر.

في الواقع، لم يكن كما توقعته، أي شعره أشقر وعيناه خضراوان كشقيقته. ربما لهذا فوتت رؤيته حتى الآن. ولكن هذا لا يفسر عدم اقترابه منها، فاسمه مكتوب بوضوح على اللوحة التي تحملها. . .

تقدمت توري إلى الأمام مرحبة بابتسامة: «طُلب مني أن أستقبلك، يا سيد ماغواير».

تحوّلت عيناه الفولاذيتان إليها تتفحصانها، دون أن يرتسم على ملامحه المنحوتة أيّ جواب، ثم سألها بحذر: «بالنيابة عن من؟».

تبددت ابتسامتها وقطبت جبينها. لم تكن تظن، عندما تطوّعت هذا الصباح للقدوم إلى المطار لترافقه إلى بيت أخته، أن الأمر سيكون صعباً بهذا الشكل.

ـ عن أختك.

تمتمت بذلك وقد رأت أن هذه الوسامة البالغة لا عمق فيها وهو أمر مؤسف للغاية. كانت دوماً تعتبر ماديسن من أسهل الناس معشراً، وحسبت أن أخاها مثلها لكنه لا يشبه أخته من حيث الشكل، كما لا يتحلّى بظرفها.

ورد بضيق: «ماديسن؟ وما علاقتك بأختي بالضبط؟».

ونظر إليها بعين ناقدة.

حاولت توري أن ترى نفسها من خلال عينيه. فتاة قصيرة، نحيفة صبيانية الشكل، شعرها الفاحم منسدل كالحرير على كتفيها، كما أن ملامحها الشبيهة بملامح جنيّة فاتنة، خالية من أي زينة. كانت عيناها عميقتي الزرقة وأنفها يغطيه النمش، كما أنّ فمها كبير وذقنها حازمة.

الشبه الوحيد الذي يجمع بينها وبين ماديسن الطويلة الرائعة الجمال، هو السن.

ازدادت تقطيبتها حين أحسّت أنّ جوناثان ماغواير ينتقد مظهرها. كانت تحب ماديسن ورحبّت بأن تقدم لها أي خدمة، وإذا بأخيها مغاير لها. لم تكن ابتسامتها الثانية تحمل مودة وهي تجيب: «والديّ يملكان المزرعة المجاورة لمنزل ماديسن وزوجها جيدون. وعندما يغيبان يهتمان بمنزلهما».

ـ وماذا أيضاً؟

أدركت توري أن موظفة الاستقبال تصغي إلى حديثهما، وهي لا تلومها فكل شخص سيظن أن توري ستوقع بالرجل بدلاً من أن توصله.

ـ اتصلت ماديسن بي الليلة الماضية وطلبت مني أن. . .

كشر الرجل ساخطاً: «تباً! لقد طلبت من جيدون ألا يخبر أحداً بوجهتي».

ـ لكن ماديسن زوجته. . .

لقد وقعا في الغرام حين كانا يصوران فيلماً سينمائياً في الجزيرة منذ عامين. لعبت ماديسن دور البطلة فيما كان جيدون المخرج. وقد كسبا بفضل هذا الفيلم جائزتي أوسكار، لذا أحبا هذه الجزيرة وابتاعا فيها منزلاً يترددان إليه دوماً مع ابنتهما البالغة من العمر ستة أشهر.

وأجابها بخشونة: «وإن تكن، لقد طلبت منه بشكل خاص. . .».

فقاطعته بهدوء: «اسمع، أرى أن نتوجه إلى سيارتي ونتابع الحديث فيها».

ألقى على موظفة الاستقبال نظرة ضيق قبل أن يستدير على عقبيه من دون كلمة أخرى، متجهاً إلى أمتعته التي تركها عند أسفل السلالم.

هزت توري كتفيها للموظفة بكآبة قبل أن تتبعه. لاحظت أن العربة التي يدفعها نحو باب الخروج تحمل صندوق قيثارة.

ـ هل تحسن العزف؟

ألقت عليه السؤال باهتمام وهي تسير بجانبه نحو موقف السيارات.

نظر إليها بجمود: «عفواً؟».

تملكها الشك في شعوره بالأسف فهو نادراً ما يندم، ولكن ربما علّمه أحدهم شيئاً من التهذيب. وأشارت إلى صندوق القيثارة: «لاحظت صندوق القيثارة».

تابع النظر إليها بعينيه الجامدتين: «وهكذا؟».

جذبت نفساً عميقاً: «اسمع، يا سيد ماغواير، أرى أن نبدأ تعارفنا».

ووقفت فجأة على الرصيف: «اسمي توري بوكانان وأنا مسرورة جداً بالترحيب بك في جزيرة مان».

مدت له يدها تصافحه. لكنه نظر بجمود إلى يدها الرشيقة للحظات، ثم رفع يده ببطء ليمسك بيدها وهو يقول باختصار: «سبق وزرت الجزيرة من قبل».

أحقاً؟ ولم لا، فقد أمضت وقتاً طويلاً بعيداً عن الجزيرة، ولهذا لعل زيارته فاتتها. ولكن كان لديها انطباع وهي تتحدث إلى ماديسن الليلة الماضية، بأن جوناثان ماغواير لا يعرف الجزيرة أو منزل ماديسن وجيدون ما جعل ماديسن تسألها أن تذهب إلى المطار لاستقباله.

والتوت شفتاه استخفافاً وهو يقول: «كانت زيارة قصيرة جداً».

بدا من لهجته أنها زيارة لا يريد الحديث عنها. حسناً، لا بأس في ذلك، فقد سبق وقررت أنها ورغم وسامة جوناثان ماغواير، ستنساه ما أن تُنزله أمام المنزل! إنه متغطرس بارد وغامض بينما كانت تتصوره مرحاً ظريفاً، ذهبي الشعر كأخته.

عندما وصلا إلى الموقف، أشارت إلى الناحية اليسرى: «هذه سيارتي بل سيارة أبي في الواقع».

فتحت الباب الخلفي للسيارة، الموحلة قليلاً إذ أنّ أباها يقودها في

الحقول التي تحيط بمزرعته، وتابعت تقول: «أخذ أبي وأمي سيارتي لحضور عرس هذا الصباح».

شعرت بأن عليها أن تضيف ذلك. ولم تعرف سبب هذا الشعور فهي لا تدين لهذا الرجل الجاحد بأي تفسير.

عندما وضع حقائبه في الخلف، لم تعرض عليه أي عون، بل جلست خلف المقود تنتظره. هدرت السيارة باحتجاج لعدة ثوانٍ قبل أن تنطلق متجهة إلى المخرج.

ـ ألم تكوني مدعوة أنت أيضاً؟

ـ إلى أين؟

أجاب وقد بدا عليه الاسترخاء التام: «إلى العرس».

إذن، فقد كان يصغي إليها حقاً، أجابت: «بل كنت مدعوة، ولكن...».

ـ ولكن ماذا...؟

فقالت توري بسرعة متعمدة عدم النظر إليه: «لكن صديقة لي طلبت مني إسداء خدمة لها، بدلاً من ذلك».

أحست به ينظر إليها وقد ضاقت عيناه. حسناً، لقد كانت مدعوة إلى العرس لكن عندما سألتها ماديسن أن تستقبل أخاها في المطار وتحضره إلى البيت، شعرت توري بالسرور رغم أن العروس ابنة خالها. على أيّ حال، ما زال بإمكانها أن تذهب إلى حفل الاستقبال عند العصر.

ـ نعم، أحسن العزف.

نظرت إليه بحيرة. يبدو أن شيئاً ما فاتها! فقال: «أعني على القيثارة لقد سألتني إن كنت أعزف».

أومأت متفهمة: «أي نوع من الموسيقى تعزف؟».

ساد صمت قصير جعل توري تنظر إليه مرة أخرى. أنبأتها ملامحه الغامضة أنها تغامر مرة أخرى بدخول منطقة ممنوعة، فكل موضوع معه

مزروع بالألغام. وأخيراً قال: «أعزف عادة ما يخطر ببالي».

تنهدت لصده لها ثم حوّلت انتباهها إلى القيادة. كانت تحاول فقط أن تجري معه حديثاً مهذباً، لكن يبدو أن التهذيب هو مضيعة للوقت مع جوناثان ماغواير.

لم يبق أمامها سوى نصف ساعة قبل أن تنزله عند بيت أخته آملة ألا تراه مرة أخرى طيلة زيارته. كل ما ترجوه هو أن يجعلها زيارة قصيرة!

حاولت أن تتذكر القليل الذي قاله ماديسن عن أخيها مساء أمس. كانت تسميه جوني. لا يمكنها أن تتصور أن تدعو هذا الرجل البارد باسم حميم مألوف!

بدا ثرياً للغاية من ملابسه الثمينة كما لاحظت أن حقيبته وصندوق القيثارة كانا من أحسن ما يمكن للمال أن يشتريه. وبصفته شقيق ماديسن، لا بد أنه ابن سوزان ديلاني... تلك المرأة التي كانت ممثلة أسطورية، وقد رأتها توري بضع مرات وأحبتها حين زارت ماديسن وزوجها في الجزيرة. لعل جوناثان يشبه أباه لأنه لم يكن يشبه على الإطلاق أخته الساحرة وأمهما!

قررت توري أن تنسى هذا الرجل الجالس بقربها، وتركز على قيادة السيارة. كان يوماً جميلاً من شهر حزيران فالجو مشمس دافىء وجوانب الطرق مغطاة بالأزهار المختلفة. حتى أن هذا الرجل الصامت بجانبها لم يستطع أن يفسد استمتاعها بيوم كهذا!

ابتدأ اهتمامها بهذا الرجل يزداد، رغماً عنها. فماذا يريد رجل أميركي يناهز الثالثة والثلاثين من مجتمع صغير مثل جزيرة مان؟ هذه الجزيرة بجمالها الرائع، وحياتها الآمنة وعدد سكانها المحدود لا تُعدّ مكاناً عصرياً لقضاء الإجازات بالنسبة للرجال العازبين.

كانت تعلم أن الشيء نفسه يمكن أن يقال لامرأة في الرابعة والعشرين، أيضاً. لكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة إليها بالذات. فقد

ولدت هنا، وأسرتها تعيش هنا، بينما جوناثان ماغواير بعيد عن أسرته!

نعم، إنها مهتمة بهذا الرجل!

وهذا آخر شيء تريده في هذه اللحظة. لقد عادت إلى موطنها لتفكر في نفسها قليلاً ولتتخذ بعض القرارات الخاصة. ولهذا فهي ليست بحاجة إلى رجل غامض يعقد الأمور مثل «جوناثان ماغواير».

ـ ما كان ذلك؟

هتف جوناثان ماغواير بذلك وهو يشهق مصدوماً عندما انطلق بجانب السيارة شريط أحمر محدثاً جلبة.

ابتسمت توري من دون انزعاج وقالت عندما رأيا شريطاً ملوّناً آخر، أزرق اللون: «ألم تسمع عن (السباق التذكاري) للسائحين».

راحت تتساءل عما إذا كان السباق هو سبب قدومه إلى هنا، لكن ملامحه الغامضة أنبأتها بخلاف ذلك.

كان جوناثان ماغواير مقطباً: «تلك... الدراجات النارية لها علاقة بذلك».

ـ بكل تأكيد.

ولم تستطع توري أن تكبت ابتسامتها أكثر من ذلك وأضافت: «ومع الأسف اخترت أن تزور الجزيرة مع ابتداء (أسبوع السباق)».

فقال كارهاً: «أعلم أنني سأندم على ذلك. ولكن ما هو (أسبوع السباق)؟ ما هو (السباق التذكاري)؟».

ـ إنه سباق الدراجات النارية. السباق الرئيسي يبدأ في الأسبوع القادم.

قالت هذا بسرور دون أن تعير الدراجات النارية التي كانت تتجاوزهما بسرعة البرق أيّ اهتمام.

اسبوعا السباق المعروفان بأسبوع التدريب وأسبوع السباق، عرفتهما الجزيرة منذ مئة عام. العديد من سكان الجزيرة ما زالوا يعتبرون ذلك

طفلاً على حياتهم العادية الهادئة الوادعة. أما توري فقد كانت شغوفاً بهذين الأسبوعين حيث يغزو الجزيرة أربعون أو خمسون ألف نسمة ومعهم آلاف الدراجات النارية ليستمتعوا بوقتهم ويمرحوا في السباق.

وسألها: «أليس اليوم؟».

ـ لا. لم يبدأ السباق بعد.

فقال باشمئزاز: «كلامك جعلني أظن هذا».

ابتسمت: «عندما يبدأ السباق، يسدّون الطرق».

سألها بحيرة: «وهل يجري السباق في الطرق؟».

فأجابت ضاحكة: «ليس في الجزيرة كلها. يبدو أن. . .».

فعاد يعبس: «يبدو أن ماديسن لم تخبرني بذلك».

لم تستطع توري أن تمنع نفسها من السخرية: «لم يكن مفروضاً أن تعلم ماديسن بوجودك هنا، هل نسيت؟».

ساد صمت قصير قال بعده معجباً: «الفتة ذكية منك، يا آنسة بوكانان».

دهشت وهي تراه يتذكر اسمها بعد أن ظنت أنه لا يهتم بشيء باستثناء ذاته. ولكن لعلها لم تنصفه. وقالت: «إدعني توري. بما أننا سنصبح جارين لفترة. . .».

أصبحت عيناه الفولاذيتان كالثلج وهو يقول بخشونة: «لا أنوي إقامة علاقات اجتماعية أثناء وجودي هنا».

تنفست بحدة إزاء فظاظته، وندمت على الفور على إظهار المودة له ثم أجابته ببرودة: «لا أظنني قلت إنني أنوي أن أدعوك إلى حفلة. . . يا سيد ماغواير، أو إلى أي شيء آخر».

بعد نحو عشرين دقيقة ستودّع هذا. . . هذا الوغد المتغطرس. وبدت لها المدة طويلة!

لم تكن تهتم بشكل خاص بالذهاب إلى عرس ابنة خالها، وقد رحبت

بهذا العذر كيلا تذهب إلى الكنيسة. لكن لو كانت تعلم أنه فظ وقليل الأدب، لفضلت الذهاب إلى العرس!

مرّا بالموقف الكبير حيث صفوف من الدراجات النارية متوقفة استعداداً للسباق بعد الظهر، فقال باستغراب: «لم أر قط مثل هذا العدد من الدراجات النارية في مكان واحد، من قبل».

فقالت: «لا تقلق، منزل أختك بعيد عن الطرق. وقد خرجت أمي لشراء ما تحتاجه هذا الصباح وبهذا سيكون لديك ما يكفي من الطعام ولا حاجة بك للخروج لفترة طويلة إذا لم تشأ ذلك».

فبعد ما قاله، كانت واثقة من أنه لا يرغب في الخروج!

ساد صمت قصير قبل أن يجيبها: «إنها شهامة كبرى من أمك».

زمت شفتيها لدهشته من هذه اللفتة الطيبة من امرأة غريبة تماماً. وقالت: «إنها امرأة بالغة اللطف، وكلنا نحب ماديسن وجيدون، وكيلي طفلة رائعة».

أضافت جملتها الأخيرة بحنان بالغ، فقال بصوت أجش: «نعم، إنها كذلك».

كانت المرة الأولى أثناء تعارفهما القصير التي تسمعه فيها يقول شيئاً بلهجة رقيقة.

قالت بارتياح وهما يتجهان إلى الطرق الريفية مرة أخرى: «لم نعد بعيدين عن مقصدنا الآن».

كانت دوماً تشعر بالانتعاش عندما تمضي فترة في الجزيرة، فهي تشعر هنا وكأن الزمن قد توقف. حالياً، عليها اتخاذ قرارات هامة، وهذا ما هي بحاجة ماسة إليه، وليس إلى هذا الفظ المتغطرس جوناثان ماغواير.

ـ إنها جزيرة رائعة الجمال.

اعتادت توري أقواله المفاجئة غير المترابطة، فلم تعبأ بالنظر إليه هذه المرة: «هذا صحيح».

ـ ماذا تعملين هنا؟

تصلب جسمها قليلاً. هذا فضول بالنسبة إلى رجل لا يحب الأسئلة الشخصية.

هزت كتفيها وقالت مراوغة: «إدارة المزرعة تتطلب اهتمام الأسرة كلها طوال الوقت».

بملابسها المؤلفة من قميص قطني باهت الزرقة وبنطلون جينز موحل منذ أمطرت أمس، وبوجهها الخالي من أي زينة، كانت تبدو فعلاً وكأنها خارجة لتوّها من مزرعة.

لم يكن العمل في المزرعة ما تقوم به لكن هذا ليس من شأن هذا الرجل.

قال قبل أن يعود للنظر من النافذة: «أظنه صحيحاً».

ـ وأنت، ماذا تعمل يا سيد ماغواير؟

ـ أسرتي تعمل في الكازينوهات في رينو.

وكان جوابه كجوابها عن عمل أسرتها في مزرعة، وبالتالي لم تفهم منه شيئاً! فقالت بمودة: «لدينا كازينو في الجزيرة وربما تحب أن تراه أثناء وجودك هنا».

كانت ترى ذلك الكازينو مكاناً لا روح فيه. فالناس الذين يقصدونه إما من السياح أو المدمنين، ولم يكن يهمها أياً من الفئتين.

رفع حاجبيه وقال ساخراً: «هل تدعينني للخروج معك، رغم كل شيء، يا توري؟».

نظرت إليه مجفلة، ثم هدأت قليلاً وهي ترى الهزل في عينيه. إذن، لدى هذا الرجل روح النكتة!

فقالت بأسف: «لا. أنا لا أدعوك، فأنا لا أحب الكازينوهات مع الأسف!».

وكان في لهجتها نبرة اعتذار فهذا مجال عمل أسرته.

فقال وقد تلاشى الهزل من عينيه: «أنا لا أحبها».

انتظرت منه أن يتابع حديثه، وعندما لم يفعل قررت أن تضع حداً لهذا الموضوع هي أيضاً.

كان هذا القول غريباً بالنسبة لظروفه، لكنها سرعان ما أدركت أن جوناثان ما غواير رجل غامض.

قالت بعد عدة دقائق، بنوع من الارتياح، وهي تستدير لتدخل طريقاً خاصاً يؤدي إلى منزل بيرن هاوس: «ها قد وصلنا».

رغم أنها عاشت في المزرعة المجاورة معظم حياتها، إلا أنها شغوفة بجمال هذه البقعة المرتفعة فوق التلال والبعيدة تماماً عن كل شيء وكل شخص.

كان منزل بيرن هاوس ذات يوم بيت المزرعة الأساسي، ومنذ عام اشتراه أصحابه من والديّ توري فأعادوا تجديده كلياً، وبدا الآن متألقاً في ضوء الشمس، بلونيه الأبيض والبرتقالي.

أوقفت توري السيارة أمام المنزل ثم نزلت وفتحت الباب الخلفي، شاعرة بالارتياح لانتهاء الرحلة أخيراً وعدم اضطرارها، إذا ساعدها الحظ، لرؤية جوناثان ماغواير مرة أخرى.

وضع حقيبته وصندوق القيثارة على الأرض قبل أن يستدير لينظر إليها، ثم قال بخشونة: «آسف لأنني كنت رفيقاً سيئاً. عذري الوحيد هو أنني لم أتوقع أن يستقبلني أحد في المطار».

وهذا لم يكن عذراً. فقد تكلفت ماديسن عناء الاتصال بهم الليلة الماضية، لاهتمامها بتوفير الراحة لأخيها، وقد بذلت توري جهداً لإحضاره من المطار.

سألته بجفاء وهي تمدّ يدها إلى جيب بنطلونها لتخرج المفتاح الإحتياطي الذي تسلمه ماديسن عادة لوالديها: «هل لديك مفتاح؟».

مدّ يده هو أيضاً إلى جيب بنطلونه وأخرج منه مفتاحاً فضياً، قائلاً

بتكاسل: «مع تحيات جيدون».

أعادت مفتاحها إلى جيبها: «حسن! إذا احتجت أي شيء آخر، أنا واثقة من أن والديّ سيسرهما مساعدتك».

وأشارت إلى منزل ريفي في الحقل المجاور، يمكن رؤيته بوضوح.

وفيما كانت تهم بالذهاب إلى سيارتها، أمسك بذراعها وسألها: «ولكن ليس أنت؟».

انتبهت توري إلى حزم وحرارة تلك اليد على ذراعها العارية فرفعت إليه عينيها الداكنتين ثم هزت رأسها، وشعرها الأسود الكث يموج فوق كتفيها: «قد لا أكون هنا. أنا مثلك، مجرد زائرة».

فقطب جبينه: «لكنني ظننتك قلت..».

- ستجد الطعام في الثلاجة، وكذلك الخبز.

كانت تعلم ذلك لأنها هي من أحضر الأغراض إلى المنزل، وتابعت تقول: «هناك أيضاً قطعة من فطيرة تفاح صنعتها أمي في الخزانة».

وسحبت يدها من قبضته وولجت سيارتها متلهفة إلى الانطلاق: «السيارة في الكاراج خلف البيت. مفاتيحها معلقة قرب الثلاجة. كما تترك ماديسن دوماً قائمة بأرقام الهاتف الضرورية، قرب الهاتف».

أدارت المحرك ومدّت يدها تغلق الباب خلفها، لكن جوناثان ماغواير مدّ يده، هو أيضاً، يمسك بالباب وسألها برقة: «هل رقم هاتفك موجود؟».

لقد قرر الآن أن يكون ظريفاً! حسناً، إنها لا تريد أي ظرف من هذا الرجل!

رفعت ذقنها متحدية: «رقم هاتف والديّ هناك، إذا احتجته».

نظر إليها مفكراً: «لم أكن مهذباً معك، أليس كذلك؟».

نظرت إلى عينيه لحظة طويلة دون أن تطرف عيناها، وأخيراً أجابت: «هذا صحيح».

طرف بعينيه. وعندما رفع جفنيه عادت تلك العزلة إلى عينيه مرة أخرى: «أخبريني، هل أنت منسجمة تماماً مع ماديسن؟».

فقالت برزانة: «تماماً».

وفجأة، قال بابتسامة عريضة: «هذا ما ظننته».

رأت نفسها تنظر إلى رجل آخر فاهتزت مجفلة. بدا أصغر بسنوات بعد أن تخلى عن العبوس، وبدت أسنانه بيضاء مستقيمة في وجهه الذي لوّحته الشمس، كما تألقت عيناه بعد ذلك اللون الرمادي الصارم.

سلخت توري نظراتها عنه: «عليّ حقاً أن أذهب الآن يا سيد ماغواير».

وأشارت إلى الباب الذي كان ممسكاً به، ثم تملكها الارتياح عندما تركه بعد لحظة تردد، سامحاً لها بأن تصفقه. أنزلت زجاج النافذة بجانبها لتقول له: «هناك شيء آخر. إذا أردت أن تستعمل السيارة أثناء وجودك هنا، فمن الأفضل ألا تذهب إلى أي مكان غداً. إنه (الأحد المجنون)».

- ما هو المجنون؟

- الأحد.

- حسناً، أعلم أن غداً هو الأحد، ولكن لماذا هو مجنون؟

فقالت ضاحكة: «هل تتذكر كل تلك الدراجات النارية التي رأيتها في (الموقف الكبير)؟ ستنطلق غداً متسابقة في طريق الجبل ذي الاتجاه الواحد».

وانطلقت بالسيارة وهي ترى الذهول على وجه جوناثان فلم تستطع إلا أن تبتسم. لو أنه جاء ناشداً الهدوء والسكينة فقد اختار الأسبوع الخطأ.

* * *

٢ ـ إذا كنت تجرؤ!

لم يكن مزاجها قد تحسّن تماماً عندما عادت إلى المزرعة لتجد أن روبرت ترك لها رسالة على المجيب الآلي.

كانت تفتح الجهاز بشكل دائم كلما زارت أبويها لتتمكّن من تسجيل كل مخابرة تصلها ولكن مخابرة روبرت بالذات لم تكن تريدها.

قالت له إنها لا تريده أن يتصل بها أثناء وجودها هنا. لكنه، بطبيعته المستبدة، لم يهتم بذلك.

ـ مرحباً يا حبيبتي.

حيّاها بصوته الساحر فتصورته جالساً على كرسيه الجلدي رافعاً قدميه على المكتب: «أردت فقط أن أعرف إن كنت مستعدة للعودة. إننا نفتقدك».

أقفلت توري الجهاز بقوة. تباً له، إنها الآن في بيتها. أما بالنسبة لافتقادهم لها...

لا شك في أنهم يفتقدونها... خاصة روبرت، فهي التي ساعدت في حصوله على هذا الحذاء الجلدي، والبذلة الثمينة والقميص. في الواقع، كانت هي ربة نعمته أو بطاقة الإعاشة، بالنسبة إليه.

تهالكت على إحدى كراسي المطبخ، واضعة مرفقيها على المائدة ثم أراحت ذقنها على يديها، فآخر ما تريده هو أن تكون حاقدة. ولكن ماذا

يمكنها أن تفعل؟

لهذا السبب أتت إلى هنا منذ أسبوع، فهي تعلم أنها أقرب إلى الجواب هنا!

ـ ساعدينا يا حبيبتي، رجاءً.

قال أبوها ذلك وهو يفتح الباب ويدخل المطبخ وذراعه حول خصر أمها التي كانت تعرج بشدة.

قفزت توري باهتمام واندفعت نحو أمها فتمكنا معاً من أن يساعداها على الجلوس على إحدى الكراسي. كان كاحل أمها الأيسر مضمداً، وبدا الألم على وجهها.

وعندما جلست الأم، هتفت توري بعنف: «ما الذي حدث؟».

أجابت الأم، مشمئزة من نفسها، في ملابسها الصيفية المؤلفة من طقم أبيض وبلوزة وردية وقبعة من اللون نفسه: «وقعت وأنا خارجة من الكنيسة».

قال أبوها الذي لوّحت الشمس وجهه الأحمر، وهو يبتسم مرتاحاً لعودته إلى البيت من دون المزيد من الحوادث المؤسفة: «كما أنها لم تشرب قطرة ماء».

ـ التفاهة والغرور تسبّبا في ذلك. ما كان عليّ أن انتعل حذاءً عالي الكعبين.

قالت الأم وهي تحملق في الحذاء الأبيض، وقد بدا عليها الانزعاج البالغ لسقوطها: «لا أتذكر آخر مرة لبست فيها حذاء كهذا. بقينا نصف ساعة في المستشفى ليصوروا كاحلي. ما من كسور والحمد لله، مجرد التواء في المفصل».

قالت توري وقد نسيت تماماً كل شيء عن روبرت: «سأعد لكما الشاي».

كانت هذه الحادثة مشكلة حقيقية رغم ابتسامة العطف التي واجه بها

أبوها إصابة أمها. فأمها شريك أساسي في إدارة المزرعة، وهي لم تعد قادرة على الحركة الآن. . .

ـ فكرة حسنة، يا حبيبتي.

أجابها أبوها بذلك وهو يجلس بدوره الى مائدة المطبخ. لقد أمضت الأسرة الكثير من الوقت في المطبخ، وتناولت الوجبات كلها على هذه المائدة، وغالباً ما كانوا يتمهلون، في المساء، ليتحدثوا ويثرثروا.

سألت توري وهي تحضّر الشاي: «كيف كان العرس؟».

وعلى الفور رقّ وجه أمها وقالت باسمة وهي تتذكر: «رائع. أنا أحب الأعراس كثيراً».

وأضاف أبوها بحماسة أقل: «وقد بدت دينيس جميلة».

بدا عليه الضيق في هذه البذلة والقميص اللذين اضطر للبسهما للمناسبة. وتابع قائلاً: «ولو أنني لا أستطيع القول إنني معجب بالشاب الذي تزوجته».

ألقت الأم على ابنتها نظرة ذات معنى: «انتظري حتى يأتي دورك، يا توري. لن يكون هناك رجل يستحقك، أنت أيضاً!».

فقال الأب بخشونة: «الحق معك يا ثلما. ما من رجل يستحق حبيبتنا توري».

ابتسمت توري لهما بحنان وهي تناولهما الشاي.

ـ لو كنت مكانكما لما أقلقني الأمر، فأنا لا أنوي الزواج إلا بعد سنوات. هذا إذا تزوجت!

لم يكن هذا شعورها دوماً. فقد ساورتها قبل فترة آمال وأحلام بنات جيلها، فكانت تحلم بزوج وأولاد وبيت دافىء كالبيت الذي نشأت فيه.

لكن الأمور تغيرت الآن. وكذلك روبرت ولو بعد فوات الأوان، لحسن الحظ! لأن روبرت الذي بقي لسنوات يقول إن الزواج لم يخلق له، تغيّر فجأة منذ أسابيع وأصبح يحثها على الزواج منه في كل فرصة تسنح

له. لو طلب منها الزواج منذ سنوات، لقبلت، ولكن ليس الآن. فروبرت لم يعد ذلك الفتى الرائع. في الواقع، أصبحت تعرفه الآن جيداً. وقد شكرت الله لأنه لم يعرض عليها الزواج منذ عامين، وإلا لارتكبت أكبر غلطة في حياتها!

قالت باسمة: «حسناً، أنا مسرورة لأن العرس كان جيداً، رغم ما حدث لكاحلك يا أمي».

فقالت الأم: «إنه ذنبي أنا. كيف الحال مع شقيق ماديسن، جوني؟».

عبست توري وهي تجلس إلى المائدة حاملة فنجانها: «إذا أخبرتك أنني كنت أدعوه السيد ماغواير عندما أنزلته أمام البيت وكنت أفضل لو قذفته من فوق الصخور، ربما يطلعك هذا على مدى انسجامنا معاً!».

فقالت أمها بقلق: «آه، يا عزيزتي. مع أن أخته وزوجها طيبان للغاية».

كانت الجزيرة مسكناً لممثلين عدة، وموسيقيين مشهورين ومغنين، فضلاً عن مجموعة من المؤلفين الناجحين، وبعض الأثرياء الأقل شهرة. فتعوّد أهل الجزيرة ألا يستغربوا إذا ما رأوا أحدهم في السوبر ماركت.

ـ أنا لم. . .

وسكتت فجأة حين أخذ الهاتف يرن. لقد نسيت أن تعيد فتح المجيب الآلي بعد تلقيها مكالمة روبرت، ولم تكن بحاجة إلى التخمين طويلاً لتدرك أن المتكلم هو «روبرت» مرة أخرى. وعندما رأى أبوها نظرة الاستياء على وجهها، سألها بلطف: «أتريدين أن أجيب عنك؟».

عودتها إلى البيت لكي يتاح لها التفكير في وضعها هو شيء، وترك أبيها يواجه مشاكلها بدلاً منها، هو أمر آخر تماماً.

ـ لا بأس، سأجيب أنا.

واختطفت سماعة الهاتف وردّت بحدة بالغة: «نعم؟».

ساد صمت قصير في الناحية الأخرى من الخط، قبل أن تسمع من

يقول: «كيف عرفت أنه أنا؟».

ـ لم أعرف أنه أنت.

أجابت جوناثان ماغواير بشيء من الخجل، مشيحة وجهها عن نظرات والديها كيلا يلحظا احمرار وجهها.

سألها ساخراً بينما بدت لهجته الأميركية أكثر وضوحاً: «ومن غيري كدّرك اليوم؟».

فقالت بمرح: «لا أحد بالذات».

ما الذي يريده؟ عندما فارقته منذ ساعة، لم يكن لديها شك في رغبته في العزلة.

قال بإعجاب: «أنت ماهرة جداً في ذلك».

فترددت: «في ماذا؟».

ـ في الأجوبة المراوغة.

ضحكت مجفلة: «يتوقف الأمر على خبرتك في الأجوبة المراوغة!».

بعد تمضية أربعين دقيقة بصحبة جوناثان ماغواير وجدت أنّ معرفتها به أقل مما كانت عليه قبل أن تعرفه!

أخذ يضحك بهدوء: «لا بأس، فأنت لن تخبريني من كدّرك اليوم. لن أؤخرك طويلاً، لأنني أعلم أنك متلهفة للذهاب إلى عرس ابنة خالك. أنا. . . هذا هو سبب اتصالي بك، في الواقع».

طرفت توري بعينيها ثم سألته غير مصدقة: «لا أظنك تقترح أن تأتي معي؟».

أخذت تتصور تخمينات الأسرة وهي تصل إلى العرس برفقة أميركي طويل وأسمر! وإن كان هذا لا يعني أنها تنوي الذهاب من دون أمها وأبيها، ولكن من المؤكد أنه لا يمكن لجوناثان. . .

لكن جوناثان قال على الفور ليزيل أوهامها: «لا، طبعاً. لكن بعد

تفكير ملي، أدركت أنني مدين لك باعتذار على سلوكي السابق. . .».

فقالت بهدوء: «سبق وقمت بذلك».

ـ أعتذر على عدم شكري لك لأنك تفرغت اليوم لكي تحضريني من المطار. وأنا. . . أشكرك الآن.

آه. . . هذا يجرح كرامته حتماً، كما خطر لها، وردت عليه بمرح: «أهلاً بك».

وسمعت آهة عميقة في الناحية الأخرى من الخط: «أنا لست، عادة، فظاً كما تصرّفت اليوم. . .».

فقالت مازحة: «لا تخبرني. . . بأنك، عادة، أكثر فظاظة!».

رد بانفعال: «أنت لا تتسامحين في الأمر، أليس كذلك؟».

حسناً، لم تكن واثقة مما قصده. لقد اعتذر وقبلت اعتذاره. ما الذي يريده أكثر؟

سألته بحرص: «أتظن أنّ عليّ ذلك؟».

كل ما قاله صحيح. فقد خصصت له وقتها، وفاتها عرس ابنة خالها لتذهب إلى المطار وتحضره، وإذا به يواجهها بتلك الفظاظة.

فقال بإذعان: «ربما لا. عندما ترين أمك، هل لك أن تشكريها لإعدادها الفطيرة؟ كنت جائعاً عندما وصلت إلى هنا، فتناولت قطعة منها وهي لذيذة».

قالت له: «لماذا لا تخبرها بنفسك؟ إنها جالسة هنا».

خطر لها ذلك فجأة لتنهي المكالمة من دون أن تبدو قليلة التهذيب.

وناولت السماعة لأمها قبل أن يجيبها جوناثان. . .

وتحرّكت توري لتقبّل أباها على وجنته برفق ثم قالت وهي تنظر إلى أمها: «سأذهب إلى الستوديو. اصرخ إذا احتجتني».

وانبأها احمرار وجه أمها بأن جوناثان يثني دون شك على الفطيرة اللذيذة.

ابتسمت توري وهي تغادر المنزل. قد يكون الطريق إلى قلب الرجل يمرّ بمعدته، لكن الطريق إلى قلب أمها هو مدح طهيها حتماً. وبدا وكأن جوناثان ما غواير قد فتن فرداً من أسرة بوكانان.

تلاشت ابتسامتها حين وصلت إلى المبنى الخارجي الذي سمح لها أبوها بأن تحوّله إلى استوديو. دخلت ووقفت تنظر حولها شاعرة بماذا. . .؟ فأينما وقع نظرها ترى برهاناً على نجاحها. ذات يوم، كان هذا كل ما تريد. لقد تركت الجزيرة منذ ست سنوات للبحث عن ذلك الحلم وبعد خمس سنوات من النجاح، أدركت أنّ ما وصلت إليه ليس كافياً بل هي تريد اكثر.

لقد خاطرت منذ ست سنوات ونجحت. فهل لديها الشجاعة الآن، وهي لا تزال في القمة، لأن تتنحى وتترك تلك المهنة؟

يعتقدها روبرت مجنونة لمجرد التفكير في تلك الخطوة التي شغلت ذهنها في الأشهر الأخيرة. لكن لروبرت أسبابه الخاصة التي تدفعه إلى إبقائها حيث هي، فالأجر الذي يتقاضاه يناسبه تماماً.

ولكن هل تناسبها هذه الحياة؟

لو أنها تعرف الجواب، لما بقيت هنا في الجزيرة ولما كان عليها أن تتعرف إلى ذلك الفظ جوناثان ماغواير، أيضاً.

* * *

(متغطرس، عديم المراعاة، لا يهتم إلا بنفسه!) واحت توري تحدث نفسها وهي تقف في المطبخ لتتفحص محتويات القدور التي تغلي على النار.

ـ هذا دليل سيء، يا حبيبتي.

قال أبوها هذا وهو يدخل المطبخ، وقد ارتدى ملابس العمل المريحة. وبدا عليه الارتياح التام وهو يرى نظرة التساؤل في عينيّ توري فأضاف: «أعني الحديث مع نفسك».

عبست وردّت: «سيجهز الغداء بعد ربع ساعة».

لم تكن تتحدّث مع نفسها لأنها هي التي تطهو غداء الأحد، بل لطالما أسعدها أن تقوم بحصتها من العمل في المزرعة أثناء وجودها فيها.

لا، لم تكن المشكلة في طهي الغداء. . . بل في أنّ جوناثان ماغواير مدعو. هذا ما كان يضايقها!

لقد أعطاها كل الدلائل أمس على أنه كان يود إحاطة نفسه بالغموض. . . وهو يريد أن يبقى منعزلاً وحده. وإذا به، قبل أن ينهي مكالمته أمس، يقبل دعوة أمها على الغداء.

ورغم رغبة توري في تناول الطعام في المطبخ كالمعتاد، إلا أن أمها أصرت على استعمال غرفة الطعام التي نادراً ما يستخدمونها.

إنه شرف!

كان غداء الأحد مصدر بهجة للأسرة، حيث يمضون فترة بعد الظهر في الاسترخاء أمام التلفزيون أو في قراءة الصحيفة. كان أملهم الوحيد هو ألا يطيل الضيف بقاءه بعد الغداء! لم تستطع أن تفهم ما جعل جوناثان يقبل الدعوة، بعد ادعائه أنه لا ينوي الذهاب إلى مناسبات اجتماعية أثناء وجوده في الجزيرة؟

نظرت إلى ساعتها بفروغ صبر: «إذا لم يحضر ضيفنا بسرعة، فسيفوته الغداء».

ـ أنا واثق من. . .

وقطع والدها كلامه عندما سمع هدير سيارة تجتاز الفناء، فضحك: «(أذكر الشيطان يحضر في الحال) من الأفضل أن أذهب وأرتدي ملابس نظيفة».

نظر بأسف إلى ثياب العمل المريحة والمبقّعة بالوحل: «وإلا خاصمتني أمك».

وبما أن أمها ترتاح في غرفة الجلوس بسبب الإصابة في كاحلها،

وأباها قد صعد ليغيّر ملابسه، لم يبق سواها ليفتح الباب. وكان جرس الباب الأمامي نادراً ما يرن فسكان الجزيرة يستعملون دوماً الباب الخلفي.

وتطلّب إزاحة المزلاجين الثقيلين بعض الوقت من توري قبل أن تستعمل المفتاح الذي أخذ يصرّ لينفتح الباب أخيراً.

سألها بلهجة مطاطة بعد أن سمع صرير المزلاجين والمفتاح في القفل: «هل تحتفظون بخزنة هنا؟».

افترضت توري أنه هو المتواري خلف الباقة الضخمة من أزهار الأقحوان الصفراء، إذ لم يكن يبدو منه سوى ساقيه الطويلتين.

فقالت بحدة، وهي تفسح له الطريق ليدخل: «هذا مضحك، ولكن هل لك أن تدخل من الباب الخلفي مستقبلاً؟».

خفض أزهار الأقحوان ببطء فبدا وجهه الوسيم، وهو يقول: «آسف».

لم يكن يبدو عليه التجهم أو التعب كما بالأمس، بل بدا وسيماً إلى حد خطير، كما رأت توري. ما زال شعره الأسود مبتلاً، ومائلاً إلى التجعّد كما كانت عيناه الرماديتان دافئتين وفمه الجميل باسماً.

لم تجبه بابتسامة بل قالت له فجأة: «من هنا».

سيتناولون فعلاً الغداء في غرفة الطعام ولكن عليه حالياً أن يرفع الكلفة والرسميات في المطبخ، فهي لا يمكن أن تلعب دور المضيفة والطاهية في الوقت نفسه.

أشارت إلى الأزهار التي كان ممسكاً بها، وقالت: «ما كان ينبغي أن تزعج نفسك بإحضار هذه الأزهار، يا سيد ماغواير».

ـ آ... آسف لأنها ليست لك، بل لأمك. أمي علّمتني أن أقدّم دوماً أزهاراً لمضيفتي.

ـ أنا واثقة من أن أمي ستسَر جداً.

التهب وجهها خجلاً وارتباكاً لأنه علّمها ألاّ تحاول أن تتحاذق!

مدّ يده إلى جيبه وأخرج علبة شوكولا: «وهذه لك أنت. الأزهار للمضيفة والشوكولا لابنتها».

كان صندوق الشوكولا صغيراً، لكنه من النوع الذي تحب.

ـ شكراً.

أخذته منه فتلامست أصابعهما قليلاً وإذا بصدمة كهربائية تخزها في يدها، لتصل إلى أعلى ذراعها. وما لبث هذا الاحساس أن تلاشى لتشعر بعدئذ بأن أنفاسها محبوسة.

ما كان هذا؟

هزت رأسها قبل أن تضع علبة الشوكولا جانباً.

سألته ورأسها يدور لما شعرت به لدى احتكاك أصابعه بأصابعها: «هل تريد بعض العصير قبل الغداء، يا سيد ماغواير؟».

لم يبدُ عليه أنه تأثر مثلها وهو يضع الأزهار على المائدة، وقال: «سأشرب معك، شرط أن تكفّي عن مناداتي بسيد ماغواير... يا توري».

فأومأت برأسها: «جوناثان».

لن تناديه جوني أبداً!

ـ لدينا زجاجة عصير في الثلاجة. آمل أن تحب الدجاج.

خشيت أن يكون نباتياً رغم أن الذنب سيكون ذنبه لأن من المفروض أن يخبر أمها بذلك أمس.

ـ بل أعشق الدجاج.

ـ أهلاً بالسيد ماغواير.

جاء أبوها يرحب به وهو يدخل المطبخ، ماداً يده: «دان باكاتان. تعال إلى غرفة الجلوس لأعرفك إلى زوجتي. هل كل شيء على ما يرام، يا توري؟».

قالت شاعرة بالارتياح لحضوره واستلام مهمة الترحيب بالضيف: «تماماً. عندما أقدم الغداء سأناديك».

ألقى عليها جوناثان نظرة سريعة: «أرجو أن لا أكون قد سببت لك إزعاجاً كبيراً...».

فقالت بمرح: «أبداً. كنا سنتناول الشواء على الغداء على أيّ حال».

لقد أدركت من ضيق عينيه الرماديتين الفضيتين أنه لا تخفى عليه خافية.

قال له أبوها: «من المؤسف أن زوجتي وقعت أمس ولوت كاحلها. لكن توري بمهارة أمها في الطهي تقريباً».

فسألت توري مازحة: «تقريباً؟».

كانت تجد متعة في بيتها فأبواها واقعيان للغاية بخلاف ذلك الحشد الذي يحيط بها في لندن.

فقال الأب وهو يغمز جوناثان: «البرهان عند الأكل. دعنا نذهب لرؤية ثلما يا جوناثان فهي متشوقة للتعرف اليك».

ستجنُّ أمها من الفرح: هدايا، زهور، شوكولا... لكن كل هذا لم يغيّر من واقع أن الرجل فظ للغاية.

إلاّ أنه لم يُظهر تلك الفظاظة عندما جلس الأربعة ليتناولوا الغداء. كان جوناثان هو الذي ساعد أمها على دخول الغرفة واضعاً يده تحت مرفقها.

رأت توري ساخطة أنه درس آخر في حسن السلوك علمته إياه أمه.

والآن، من هو الفظ بينهما؟

إنها هي، لكنها لا تستطيع أن تنسى ذلك الرجل الذي تعرفت إليه أمس، رغم أن كلماته أظهرت أنه مصمم على محو تلك الصورة...

قال لأبيها وهو يتذوق الدجاج والخضار المطهوة: «لذيذ».

كان جالساً بجانب توري على المائدة، قبالة والديها وأضاف: «أطعمة المدارس لم تكن لذيذة ما جعلني أعتقد أن الطهي الإنكليزي هو الأسوأ في العالم!».

رفعت توري حاجبيها بدهشة: «هل ذهبت إلى المدرسة في

انكلترا؟».

ما أغرب ذلك وأبواه أميركيان!

قابل نظراتها بثبات للحظة، ثم قال مناقضاً قوله السابق: «الثقافة الانكليزية هي الأفضل في العالم».

فقالت ساخرة: «يبدو أن أبويك أرادا لك الأفضل».

ضاقت عيناه وهو يتأملها لحظة قبل أن يلتفت إلى أمها: «لم تكن لديّ فكرة عندما قبلت دعوتك أمس، يا ثلما، أنك لويت كاحلك، وأنني سأزيد من عمل توري».

إذا كان يريدها أن تشعر بالذنب، فقد نجح. مع أنها، لو كانت صادقة مع نفسها، لأدركت أن جوناثان ليس الشخص الذي يزعجها اليوم. فقد اتصل بها روبرت مرة أخرى هذا الصباح، وأزعجها بشدة لأنه واثق من عودتها السريعة إلى لندن للاستمرار في العمل.

قالت بارتباك: «لم يكن هناك إزعاج».

إنه ضيف والديها على أيّ حال، وهي لم ترحّب به كما ينبغي: «وأنا مسرورة لاستمتاعك به. هنالك فطيرة كرز من صنع أمي سأقدمها كحلوى بعد الغداء».

ـ إذا لم أكن حذراً، فسأسمن أثناء وجودي هنا.

تملكها الشك في ذلك، لأن بنية جوناثان رشيقة ورياضية.

لكن هذا لا يعني أنها تجد جوناثان ماغواير جذاباً! لديها ما يكفيها من المشاكل وهي تحاول أن تنظم حياتها من دون أن تعقدها بانجذاب لن يودي بها إلى أيّ مكان. كما لم تلاحظ على جوناثان أي دليل على أنه يراها جذابة!

هل شعورها بالضيق هو السبب؟ لم تتعود وضع الزينة على وجهها أثناء وجودها في البيت وكانت تكتفي بارتداء بنطلون الجينز والقمص لأنها لا تدري أبداً متى قد يطلب منها أبوها أن تساعده في المزرعة. لم

تزعج نفسها يوماً بالتبرج أثناء وجودها هنا، فقد كان عدم اهتمامها بمظهرها مصدر راحة لها.

لم يأت جوناثان بإشارة تبيّن أنه لاحظ أنوثتها، وإن كانت جذابة أم لا!

سألته أمها باهتمام: «كيف حال ماديسن وجيدون؟ والطفلة الحبيبة طبعاً».

فقال جوناثان: «أرى أن ابنة أختي كانت تحطم القلوب في هذه الناحية من المحيط الأطلسي أيضاً. ماديسن وجيدون بخير، وهما حالياً يقومان بزيارة عرّاب ماديسن وزوجته، أيّ إدغار وكلير».

ابتسمت الأم: «أظن أنّ والديك مسروران بكيلي الصغيرة، أليس كذلك؟ هل هي أول حفيدة لهما؟».

فقال ساخراً: «نعم، حتى الآن...».

نظرت توري إليه مفكرة. ربما يظن أبواها أن ما من رجل يستحقها، لكن هذا لا يمنعهما من أن يتمنيا أن يرزقا بأحفاد. هل من الممكن أن والديّ جوناثان، بعد أن أصبح لديهما حفيدة الآن، يضغطان عليه ليتزوّج؟

وتابعت الأم اسئلتها بسعادة: «ووالدا جيدون؟ أظنهما سعيدين هما أيضاً؟».

لم تتغير ملامح جوناثان، ومع ذلك شعرت توري بتغيّر مفاجىء فيه وهو يجلس بجانبها... فقد أصبح جسمه متوتراً، وبدا في عينيه نوع من الحذر.

هل لأن أمها ذكرت والديّ جيدون؟ أم لأنها ذكرت جيدون نفسه؟ هل الرجلان غير منسجمين مع بعضهما البعض؟

وجدت صعوبة في تصديق الأمر، فالرجلان متشابهان. كان جيدون قوي الشخصية واثقاً من نفسه صاحب رباطة جأش مثله، أم أنه يظن أن جيدون لا يستحق أخته؟ كانت توري تعتقد أن هذا رأيّ الأخوة غالباً.

ولكن هذا لا يعني أن لتوري أخوة، إنما بإمكانها أن تتصور أنّ جوناثان حريص على حماية أخته الصغيرة.

وأخيراً قال جوناثان وهو يضع سكينه وشوكته على صحنه الفارغ: «والدا جيدون متوفيان. والآن عليّ أن أذهب، فقد قطعت عليكما فترة العصر».

بدا لتوري أنه يتعمّد الرقة في لهجته، واعترت الدهشة أمها فقالت تحتج بشيء من الارتباك: «لكننا لم نأكل الحلوى بعد».

وكانت توري تعلم جيداً أن لا أحد يمكن أن يترك المائدة من دون أن يأكل حلوى أمها! فوقفت وقالت له: «هل لك أن تساعدني في رفع الأطباق يا جوناثان؟ ستتذوق فطيرة الكرز التي حضّرتها أمي لتخبرها أيهما تفضل، فطيرة التفاح أم الكرز؟».

وابتسمت لاحمرار وجه أمها.

ربما لم يكن من المناسب أن تطلب من الضيف أن يساعدها في نقل الأطباق إلى المطبخ. ولكن بدا لتوري أن جوناثان بحاجة إلى أن يرتاح من الحديث الذي أصبح شخصياً أكثر مما يجب!

لم يكن بإمكانها أن تعلم ما يضايقه في الحديث عن أخته وزوجها... ولكنها كانت تعلم أن هذا ما حدث، إلا إذا اكتفى من صحبتهم الريفية الضيقة. على أيّ حال، لا بد أنه معتاد على نوع آخر من الناس أكثر حنكة بكثير!

قال لها بهدوء عند وصولهما إلى المطبخ، وبعد أن وضع الأطباق التي يحملها جانباً: «أشكرك».

نظرت إلى ظهره العريض القوي، وعادت تتساءل كيف يدفن شخص مثله نفسه في جزيرة مان لمدة غير محدودة، ومرة أخرى لم تجد جواباً!

لعله يحتاج مثلها، إلى الوقت وإلى مكان منعزل ليتمكّن من أن يفكر...؟ ولعله مثلها لا يستطيع أن يتحدث عما يفكر فيه أمام شخص

ثالث . . .

التفت بحدة وكأنه أحس بنظراتها الحائرة عليه، وبدا الحذر على ملامحه على الفور: «أعني، طبعاً، لأنك ساعدتني على أن أتجنب إهانة أمك بعدم تذوّق حلواها».

فقالت تكرر كلمته ساخرة: «طبعاً».

إذا كان قد قرر أن يغادرهم لأنهم أضجروه، فهو إذن فظ غير مهذب! ولكن ألم تكن تعلم ذلك من قبل؟

ألقى عليها نظرة متفحصة تلقتها توري بعدم اكتراث هادىء. كان يضيّع وقته في محاولة إرباكها بتلك الطريقة، فقد اعتادت أن تسلّط الأضواء عليها.

رفع جوناثان نظره عنها، ثم سألها بجفاء: «هل تريدينني أن أنقل شيئاً إلى غرفة الطعام؟».

فتحت الثلاجة وأخرجت وعاء القشدة قائلة: «هذا. إلا إذا كنت تفضل الآيس كريم، لأنني أعتقد أن الأميركيين يفضلونه مع الحلوى».

فقال ببطء: «ما تعتقدينه صحيح».

أخرجت الآيس كريم من الثلاجة وحملته إلى غرفة الطعام بينما تبعها هو بالأغراض الأخرى.

ابتسم أبوها لهما وهما يدخلان الغرفة: «كنت أقول لأمك لتوّي، يا توري، إن جوناثان يريدك ربما أن تأخذيه في جولة بالسيارة عند العصر».

عبست توري بضيق، فهي لا تريد أن تمضي مع جوناثان ماغواير المزيد من الوقت، عدا عن أنه ضيفهما وليس ضيفها.

لم تكن غبية، فهي تعرف بالضبط ما يهدف إليه أبوها. إذ يعرض التليفزيون عند العصر، فيلماً عن الحرب ولم يشأ أبوها أن يفوّته، فإذا استطاع أن يقنع جوناثان بالخروج مع توري، سيتمكن هو، من رؤيته.

بدت الحيرة على جوناثان ثم قال يذكّر توري: «أظنك قلت إن من

الأفضل أن أبقى في البيت بعد الظهر بسبب السباق وغيره؟».

فقال له أبوها ببشاشة: «هذا بالضبط ما أتحدث عنه. لم ترَ توري السباق منذ سنتين. وأنا واثق من أنها متلهفة لأن تأخذك معها، أليس كذلك يا حبيبتي؟ إنه شيء يجرّبه الإنسان ولو مرة في الحياة!».

حل الذهول مكان الحيرة على وجه جوناثان: «هل تركبين الدراجة النارية؟».

شعرت توري بالغضب من عدم التصديق البارز على وجهه. لقد ولدت في الجزيرة وعاشت فيها طوال حياتها حتى السنوات الست الأخيرة، والدراجة النارية هي ميزة الجزيرة سواء أحبتها أم لا.

منذ خمس سنوات، اشترت توري دراجة نارية.

فقالت بحزم: «نعم. أنا أركب الدراجة النارية وسنخرج معاً عندما ننهي الغداء، هذا إذا كنت تحب أن تذهب».

وكانت لهجتها تعني (إذا كنت تجرؤ).

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ في قفص الإتهام

ناولته خوذته وسار الإثنان إلى السقيفة حيث تضع توري الدراجة النارية، وإذا به يقول: «ما الذي جعلنا نقوم بهذا؟».

كانت نفسها تتساءل عن السبب وهي في غرفتها تغير ملابسها تاركة جوناثان يستمتع بتناول الحلوى مع والديها.

لكنها كانت تعلم جيداً لماذا تصرفت بهذا الشكل. فالاستخفاف الذي بدا على جوناثان عندما سمع أنها تركب الدراجة النارية، دلّ بوضوح على أنه لا يصدق أنها تستطيع ركوب الدراجة الهوائية فكيف بالدراجة النارية في السباق.

سألته ضاحكة: «ألا تعلم؟».

ابتدأت تشعر بالحر في ملابسها الجلدية، فيما الشمس تصب أشعتها عليهما. ورفع حاجبيه: «وهل تعلمين أنت؟».

فأومأت عابسة: «تحديتك للقيام بجولة، وأنت جاريتني بذلك».

كشر ساخراً: «كم يبلغ طول طريق السباق؟».

ـ ثمانية وثلاثين ميلاً.

ـ ثمانية وثلاثين... كان عليّ أن أستغني عن القطعة الثانية من الفطيرة التي ألحت عليّ أمك لكي آكلها!

التفتت إليه وهي تضحك برقة للتعبير الذي بدا على وجهه، وقالت:

«هل أنت خائف من أن لا تراهما مرة أخرى؟».

دخلت السقيفة ودفعت الدراجة النارية الضخمة إلى الفناء مستعملة كل قوتها، ثم ألقت نظرة إلى جوناثان. لم يخب أملها، فقد كان يحدّق مذهولاً إلى الدراجة الضخمة.

كانت الدراجة الحمراء اللامعة بالغة القوة والضخامة، بقدر ما هي جميلة.

سألها بارتياب: «أيمكنك حقاً أن تركبي هذا الشيء؟».

توتر فمها، هل نسي أنها هي التي أحضرته في سيارة ضخمة؟ يبدو أنه ليس بالرجل الذي يتعلم الدرس من أول مرة!

وضعت خوذتها على رأسها وأدارت المحرك القوي، ثم قالت له بحزم: «إصعد، سنذهب إلى (الموقف الكبير) حيث يبدأ السباق. تمسّك جيداً».

أوقفت الدراجة ريثما صعد خلفها، وأجفلت قليلاً عندما التفت ذراعاه حول خصرها. حسناً، هي التي طلبت منه أن يتمسّك جيداً!

عندما أصبحا في ساحة السباق لم يعد الأمر صعباً. كانت أشعة الشمس تغمر المكان والهواء يصفر فكادت تنسى أن جوناثان ماغواير يركب معها. لم تكن تتذكره إلا عندما تشتد يداه أحياناً على خصرها.

لقد نسيت أيضاً بهجة الركوب، وتملكها السرور والانتعاش فيما الأميال تطوى تحتهما.

بعد أن اقتربا من (الموقف الكبير)، وبعد أول جولة، شعرت بشيء ينغرز بين ضلوعها، فالتفتت ببطء لترى ما يريده جوناثان، وإذا به يشير إلى منطقة الوقوف حيث تقف آلاف الدراجات.

ابطأت سيرها شاعرة بخيبة الأمل ثم أطفأت المحرك، ورفعت الخوذة عن رأسها. هزت شعرها الأسود فانسدل على كتفيها قبل أن تلتفت إلى جوناثان الذي بدا شاحباً للغاية! شهقت باهتمام وهو ينزل عن الدراجة

مترنحاً: «هل أنت بخير؟».

خلع خوذته وأخذ يعبّ الهواء بعد أن أصبح على الأرض الثابتة، ثم أجاب مزمجراً من بين أسنانه: «وهل أبدو بخير؟».

بدا في الحقيقة، مزرياً.

ثبتت الدراجة، ثم عادت إلى جوناثان: «أنا...».

- توري، هاي، توري!

التفت الاثنان إلى شخص يرتدي ملابس جلدية يتقدم نحوهما وهو يلهث، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة تفصح عن البهجة.

هتفت بسرور مماثل قبل أن يأخذها في أحضانه: «تيري!».

- يسرني أن أراك في الجزيرة.

تراجع قليلاً إلى الخلف لينظر إليها وهو لا يزال يبتسم ثم أضاف: «وعلى الدراجة النارية أيضاً. لقد افتقدناك السنة الماضية».

فقالت بابتسامة عريضة: «التزامات العمل».

فعاد تيري يبتسم ضاحكاً: «وكيف يسير العمل؟».

- آه، أنت تعلم...

- أكره أن أقاطع مشهدكما المثير للعواطف. ولكن هل لأحدكما أن يدلّني على دورة المياه؟.

نظر تيري إلى توري متسائلاً عما إذا كان مرافقاً لها، قبل أن يجيبه: «من هناك، يا رفيق».

وأشار باتجاه (الموقف الكبير).

أومأ جوناثان باختصار قبل أن يذهب بخطى واسعة في الاتجاه المشار إليه.

سألها بلهجة ذات معنى: «هل هو من أصدقائك؟».

أجابت وهي تلاحق جوناثان بنظراتها حتى توارى داخل استراحة (الرجال): «تقريباً، لا أظن أن سباقنا أعجبه كثيراً».

وراحت تفكر في احتمال أن يكون جوناثان قد قصد استراحة الرجال لأنه يشعر بالغثيان: «إذا لم يعد خلال عشر دقائق، من الأفضل أن تذهب لترى إن كان بخير!».

فقال تيري ضاحكاً: «إنه أميركي، أليس كذلك؟».

قالت بغموض: «نعم».

شعرت بالذنب قليلاً لأن جوناثان لم يكن مستمتعاً بالركوب مثلها، ثم التفتت إلى تيري لتغير الموضوع: «كيف حال جين والأسرة؟».

- الجميع بخير، كلنا افتقدناك في العرس أمس.

طبعاً، من المفترض أن يكون تيري، وهو ابن خالها وشقيق العروس مع أسرته في الإحتفال. وقالت بلهجة غير صادقة: «آسفة لأن العرس فاتني. كان لدي التزام آخر».

وسرّها أن ترى ذلك (الالتزام) عائداً نحوهما في هذه اللحظة بالذات. ولم يعد شاحباً كما بدا عند وصولهما.

سألها تيري: «كيف حال العمة ثلما اليوم؟».

- تمرح في المكان.

شعرت بالسعادة بعد أن عرفت أن جوناثان لم ينهار وتابعت تقول: «أنت تعرف أمي. لا يمكنها أن تجلس فترة طويلة».

- هذا صحيح. يجب أن أقول...

ونظر مفكراً إلى جوناثان الذي كان يقترب منهما: «إنه أحسن بكثير من الرجل الآخر الذي أحضرته إلى هنا».

كانت تعلم أن (الرجل الآخر) هو روبرت! فروبرت، بأناقته اللندنية لم يحاول أن يكتسب القلوب، بل كان يتعمد إظهار تفوقه على أسرتها وأصدقائها معاً.

ولكنها لم تحضر جوناثان ماغواير إلى هنا!

وعندما انضم إليهما جوناثان، التفت إليه تيري يسأله، دون أن يعطي

توري فرصة لإصلاح الغلط: «ما رأيك في سباقنا؟».

كان تيري يتحلى بروح نكتة خبيثة وفقاً لتوري وسؤاله يكشف ذلك. صحيح أن جوناثان لم يعد شاحب اللون لكنه ما زال مجهداً للغاية.

ـ جوناثان ماغواير، تيري بريدنس.

عرّفت أحدهما بالآخر بسرعة ولاحظت أن عيني جوناثان عادتا رماديتين فولاذيتين ما يدل على خطر وشيك قد يلحق بكل من يحتك به.

نظرت إليهما يتصافحان. فيما ردّ جوناثان بابتسامة مكشرة: «سباقكم هذا... هو أمر... ممتع. ما هي أنواع التعذيب الأخرى المخصصة للسائحين؟».

الجملة الأخيرة كانت من النعومة بحيث منعت توري من أن تستوعب ما فيها من تهكم إلاّ بعد ثوانٍ.

لكن تيري انفجر ضاحكاً وهو يربت على ظهر الرجل الآخر بمودة ويقول بابتسامة عريضة: «نحن ندعو ذلك مرحاً».

لم يعلّق جوناثان على كلامه بل سأله: «هل أنت أحد المتبارين؟».

فأجاب تيري برزانة: «لم أعد كذلك. تركت ذلك منذ سنوات قليلة».

وضرب بكفيه على ركبتيه غير السليمتين، وهما السبب في عرجه الظاهر: «لم يعد لديّ سرعة الحركة التي تؤهلني للتنافس».

فقالت توري بحزم: «ما جعل أسرته ترتاح!».

فهز تيري كتفيه: «أصبت».

لكن الكآبة كانت واضحة في صوته: «هل ستطول إقامتك في الجزيرة يا جوناثان، أم أنك جئت فقط من أجل السباق؟».

أجاب على سؤال تيري وقد عاد الحذر إلى صوته: «لست واثقاً تماماً من المدة التي سأمكثها هنا».

ـ إذا بقيت هنا حتى الأسبوع القادم، فهل تقبلان أنت وتوري، دعوتي

إلى جلسة هادئة؟

بدا تيري غافلاً تماماً عن جواب جوناثان غير الملتزم وهو يتابع: «هذا الأسبوع يكون حافلاً كما ترى».

وكذلك الأسبوع القادم، بالنسبة إلى توري، فهي لم تشأ أن تبدو مرتبطة بجوناثان! خصوصاً أمام أسرتها.

ـ من الأفضل أن نعود.

ولمست ذراع ابن خالها معتذرة: «وسنرى بالنسبة إلى الأسبوع القادم. فأيّ منا غير واثق من مخططه حالياً».

فقال تيري: «حسناً، ولكن إتصلي بي قبل أن تعودي إلى لندن. سررت بمعرفتك يا جوناثان».

ثم عاد وهو يعرج، إلى مجموعة أصدقائه.

نظرت توري إلى وجه جوناثان الشاحب وسألته: «هل تشعر بالقدرة على العودة إلى المزرعة، راكباً؟ أعدك بأن أسير ببطء».

أغمض عينيه فترة قصيرة ثم فتحهما ليضع خوذته على رأسه: «هذا أكثر ما فعلته في حياتي جنوناً».

نظرت إليه: «هل هذا أكثر جنوناً من ركوب المنطاد، أو الطيران الشراعي، والنزول بالمظلة؟».

ـ لم أمارس أياً من هذه النشاطات أيضاً.

ـ أنت لم تعش حياتك، إذن!

قالت هذا بحماسة، فقد جربتها كلها واستمتعت بها للغاية.

نظر إليها غير متأثر بكلامها: «ابتدأت أدرك لتوّي أنني سأستمتع بهذا حتى ولو قتلني!».

صعد إلى مقعده وقد بان التصميم في صوته فضحكت وهي ترفع يدها لتحيي تيري وأصدقاءه» قبل أن تنطلق في الطريق الساحلي هذه المرة بعيداً عن السباق.

لم يتشبث جوناثان بها هذه المرة، بل بدا مرتاحاً أكثر من السابق بكثير، كما بدا عليه الاستمتاع بمنظر البحر الإيرلندي، والصخور الشاهقة التي تبرز منه في أماكن عديدة، والهضاب المكسوة بالأقحوان الأصفر.

لم تتوجه توري إلى المزرعة مباشرة، بل سارت في الطريق المؤدي إلى شاطىء البحر المزدحم، فالشمس والرمال وهواء البحر المنعش، تبعث البهجة والنشاط في النفس.

قالت لجوناثان الذي لم يعد وجهه شاحباً، وهي توقف الدراجة وتعلق خوذتيهما: «هيا، سأشتري لك آيس كريم».

هز جوناثان رأسه، بعد دقائق، وهما يسيران جنباً إلى جنب ويأكلان البوظة.

قال: «لقد أكّد لي جيدون أن هذا المكان هو أحد أكثر الأمكنة في العالم هدوءاً وسكينة!».

ـ إنه كذلك لخمسين أسبوعاً في العام. حسناً. . . ربما أقل من ذلك، فلدينا سباقات متنوعة. ولكن، مع قدوم يوم الإثنين من الأسبوع القادم سيعود أكثر الناس إلى بلادهم.

ـ أي بلاد؟

ـ أوروبا غالباً وخصوصاً ألمانيا. يأتي الناس إلى هنا من جميع أنحاء العالم بما في ذلك أميركا. صدق أو لا تصدق، فمعظم راكبي الدراجات النارية هم من المحاسبين، والأطباء والمحامين. وقد جاؤوا ليتفرجوا على السباق ويمضوا وقتاً ممتعاً. سيكون الوضع جنونياً في دوغلاس هذا المساء.

ـ إنها العاصمة، أليس كذلك؟

ـ حالياً، ولكن منذ سنوات كانت مدينة كاستلتاون هي العاصمة.

تمتم بصوت أبح: «أتوجهين إليّ دعوة؟».

فنظرت إليه مجفلة: «دعوة. . .؟».

ـ لحضور احتفال هذا المساء في دوغلاس.

لم تكن توجه إليه دعوة! كانت تفتخر فقط بجزيرتها، وتريد من الآخرين أن يحبوها بقدر ما تحبها هي.

كان عليها أن تكتشف حقيقة روبرت عندما جاء معها إلى هنا منذ ثلاث سنوات فقد كره الجزيرة ودعاها منطقة قفراء، ضيقة الأفق!

وعندما رآها لا تجيب، تابع يقول: «أو ربما عليّ أن أدعوك أنا. وهذا عدل تماماً ما دمت دعوتني بعد الظهر».

ـ أتعني أن نذهب بالسيارة؟

فابتسم بأسف: «هذا ما أعنيه بالضبط».

قالت تذكّره: «وماذا حدث لنيتك عدم حضور المناسبات الإجتماعية أثناء وجودك هنا، كما قلت أمس؟».

إنه هنا منذ أربع وعشرين ساعة أو أكثر بقليل وقد قبل حتى الآن دعوة على الغداء عندهم، وخرج للنزهة معها، وها هو يطلب منها الآن أن تمضي السهرة معه.

لكنها لم تشأ أن تخرج مع جوناثان هذا المساء أو أي مساء آخر. وهي مثله لا تحب كثيراً المناسبات الإجتماعية، خصوصاً معه! لماذا معه خاصة. . .؟

وما لبثت أن أخرست هذا الصوت الداخلي، فالجواب واضح تماماً. كان الرجل فظاً متغطرساً للغاية، وهو لا يحب هذا المكان مثل روبرت! ربما الأمر صحيح بالنسبة إلى هذا الأخير، كما أخذت تراجع رأيها، لكن الغطرسة والفظاظة لم تظهرا على جوناثان اليوم. . .

وإذا به يقول وكأنه قرأ أفكارها: «أنا آسف حقاً لفظاظتي أمس، وعذري الوحيد وإن لم يكن كافياً، هو أنني أمضيت طوال الليل مسافراً من أميركا لأنتقل إلى طائرة أخرى أتت بي إلى هذه الجزيرة. ما كان يتملكني هو أكثر من مجرد دوار بسبب رحلة في الطائرة».

كانت تعلم بالضبط ما يعنيه ذلك لأنها عاشت التجربة، وكان يتملكها دوماً الدوار فتسهو حتى عن معرفة المكان الذي هي فيه!

فقالت بهدوء وقد انهت الآيس كريم: «لم أكن أعلم ذلك».

ـ وما الذي يجعلك تعرفينه؟ أنا. . . آه، هنا.

ومد يده يمسح جانب فمها بإصبعه، وعندما أجفلت لحركته قال مدافعاً: «كنت فقط أمسح الآيس كريم».

فاحمر وجهها لمبالغتها في رد فعلها وقالت: «آسفة فقد. . لقد عجبت لما تفعله».

ومسحت فمها بمنديل ورقي، بينما رفع هو حاجبيه الأسودين: «وما ظننتني أفعل؟».

توقفا عن السير على الرصيف، وعجزت توري عن مواجهة عيني جوناثان المتفحصتين. ماذا ظنته يفعل؟

ولـمَ تظن ذلك؟ لم تر منه حتى ابتسامة تدل على أنه يراها جذابة، فلما جعلتها تصوراتها تقفز مجفلة ظناً منها أنه سيعانقها؟

بينما لم يكن يعني ذلك مطلقاً!

رسمت على وجهها ابتسامة متألقة تغطي بها ارتباكها: «أظنني متوترة الأعصاب قليلاً. كما يسعدني جداً أن أريك مدينتنا في مساء «الأحد المجنون»».

بدا الجد على جوناثان: «ها قد بدأ التوتر ينتقل إليّ. . .».

ضحكت لملامحه القلقة: «لا، صدقني. ستستمتع بذلك، كل ما في الأمر أن الناس يمرحون كثيراً».

رغم أنها لم تعد واثقة من أنها ستكون واحدة من الذين سيمرحون، كما رأت عصر ذلك اليوم، بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسها استعداداً للخروج في المساء. آخر مرة حضرت فيها إلى الجزيرة لحضور السباق أمضت معظم أسبوع السباق مع تيري وأصدقائه ولكن صحبتها لجوناثان

ماغوابر أمر مختلف تماماً!

إذا وجد سباق الدراجات ممتعاً، فحتماً سيجد هذا المساء أكثر إمتاعاً!

عندما دخلت إلى المطبخ، قال لها أبوها: «مظهرك جميل جداً، يا حبيبتي».

لا بد أنها غيرت ملابسها أكثر من خمس مرات قبل أن تستقر على قميص أحمر متألق وبنطلون جينز أسود، ومع ذلك بدت غير واثقة من مظهرها. في العادة، كانت تذهب إلى دوغلاس مرتدية ملابس الركوب الجلدية، ولكن بما أن جوناثان سيأخذها بسيارته. . .

عندما أعادته إلى بيت شقيقته بعد الظهر شكرها لأنها أخذته معها، مبدياً سروره برحلة العودة على الطريق الساحلي، ثم أضاف فجأة، وهو يناولها الخوذة، أنه لا يريد أن يركب الدراجة النارية مرة أخرى في حياته. . . أبداً!

ضحكت توري، وكانت باسمة عندما وصلت إلى بيتها بعد بدقائق.

قالت لأمها وهي تستلم عنها إعداد الشاي: «سأقوم أنا بذلك، يا أمي».

ووضعت على الطاولة الكعك الذي خبزته هذا الصباح، والقشدة الطازجة ومربى الفريز، كما أخرجت كعكة الفاكهة التي حضّرتها أمها منذ أيام.

وعندما جلست توري معهما مكتفية بالشاي، سألتها أمها: «أولن تشاركينا في كل هذا، يا حبيبتي؟ أرجو ألاّ تكوني قد عدت إلى الحمية مرة أخرى».

قالت توري بجفاء: «لا، أنا لا اتبع حمية يا أمي. ولكن جوناثان سيأخذني إلى دوغلاس هذا المساء، وهكذا. . .».

ـ جوناثان سيأخذك؟

ورفع أبوها حاجبيه متفحصاً.

تأوهت توري في داخلها. كانت تعلم أن والديها لا يختلفان عن أي والدين آخرين، ويعتبران أيّ شاب تحت الخامسة والأربعين صهراً محتملاً. وتمنت لو أنهما لا ينظران إلى جوناثان هذه النظرة، لأنه غير مناسب لها.

ـ نعم جوناثان. ربما سنأكل شيئاً خفيفاً في مكان ما في دوغلاس.

قال أبوها بعدم اهتمام وهو يتناول المربى والكعك: «سيكون ذلك حسناً، يا حبيبتي».

فألقت عليه نظرة لوم لتقليله من شأن الموضوع، وقالت بفروغ صبر: «لن يكون حسناً على الإطلاق. لكنني لم أستطع رفض دعوته من دون أن أبدو قليلة الأدب».

فقالت أمها توافقها: «طبعاً ما كنت تستطيعين ذلك يا توري. ألا يبدو شاباً مرحاً للغاية؟».

في الواقع، الأزهار التي أحضرها، لا تزال موضع فخر لديها.

لكن جوناثان ماغواير ليس مرحاً! ربما لديه مزايا أخرى كثيرة، ولكن الرقة واللطافة ليستا من صفاته.

لم تستطع أن تجيب أمها لكنها التفتت إلى أبيها مازحة: «هل هناك مزيد من الأفلام الحربية الليلة، يا أبي؟».

غمز بعينه لتفاهمهما على محاولة بعد الظهر، حين أراد الخلاص من الضيف ليتفرغ للفيلم، وقال: «لا، لكن سيعرضون فيلماً لجون واين في آخر السهرة».

كان عمل والديها في المزرعة شاقاً للغاية، ومشاهدة التلفزيون في المساء هي وسيلة الترفيه الوحيدة لديهما.

أنهت شايها ثم وقفت: «سيأتي جوناثان ليأخذني بعد نصف ساعة لكنني سأتمشى فالجوّ بديع».

وخرجت لتتجنّب أي سؤال فضولي عن جوناثان. تناولت سترة سوداء من الكتان تحسباً لبرودة الليل، ووضعتها على كتفيها.

سألتها أمها: «هل أخذت مفتاحك معك؟ قد نكون نائمين عندما تعودين».

فردت بحزم: «لا أظنني سأتأخر إلى ذلك الحد».

كانت تعلم أنّ أبويها يحبان النوم باكراً. لكن قضاء ساعتين في دوغلاس أمر كافٍ، بل أكثر من كافٍ ما دامت مع جوناثان ماغواير.

فنصحها أبوها: «خذي مفتاحك، تحسّباً لطارىء ما».

شعرت توري بالسخط وهي ترى النظرة التي تبادلها والداها قبل أن تغادر البيت. إنهما يضيّعان وقتهما سدى إذا تصوّرا وجود أي شعور حميم بينها وبين جوناثان. إنها تحاول فقط أن تكون مهذبة مع شقيق صديقة وجارة!

ـ أظن أن السيدة تحتج أكثر مما يجب.

من أين أتى هذا الصوت المؤنّب في داخلها؟ مهما يكن، تمنت لو يعود من حيث أتى على الفور!

لا شك في أن جوناثان رجل وسيم، وبالغ الثقة بنفسه... ولكن ألم يعد متغطرساً؟ عاد ذلك الصوت الخافت في أعماقها يسخر منها مرة أخرى، مازاد في ضيقها! لم يهتم على الإطلاق بإعلان أنه لم يختبر ركوب الدراجة، من قبل، وهو لم يكن مغروراً أو مزهواً بنفسه.

وهناك أيضاً رد فعلها على لمسته... حينذاك قللت من شأن ذلك الأمر، لكنه تكرر إذ شعرت بالوخز في ذراعها عندما تصافحا في اليوم السابق. لم يكن ثمة شك في أن لمسة منه كفيلة بأن تحدث هزة كهربائية في جسدها. ولكن، ماذا يعني هذا؟

لقد أمضت وقتاً طويلاً من حياتها من دون رجل، ويقع الذنب في ذلك على روبرت مرة أخرى، فتحكّمه بها أخاف أي شاب وجعله يخشى

الاقتراب منها.

وشتمت روبرت ساخطة، فقد سنحت له فرصة الزواج منها منذ عامين، لكنه أضاعها!

لوحت بيدها للناس المخيّمين في الحقل القريب وهي تمرّ بجانب منزل جوناثان. بدا منزل بيرن هاوس وكأنه يرحّب بها تحت شمس العصر التي كنت تسبغ الدفء عليه. عندما اقتربت توري من مدخل المنزل، سمعت عزف قيثارة شجي حمله النسيم في الجوّ الساكن.

جوناثان ماغواير؟

إذا كان هو من يعزف الآن، فهو إذن عازف ماهر. دارت بهدوء حول البيت، ولم تشأ أن تزعجه لأنه يجهل أن هناك من يستمع إليه، خصوصاً بعد أن قال إنه سيمرّ بها في السابعة ولم يكن لديه فكرة عن أنها ستحضر إليه.

كان جالساً على الشرفة الخلفية للمنزل، والقيثارة على ركبتيه ويداه تنسابان بسهولة على أوتارها، فتتصاعد الأنغام شجية رائعة.

لم تلاحظ توري يديه من قبل، لكنها تراهما الآن يديّ فنان، بطولهما ورشاقتهما وهما تحتكان بأوتار القيثارة بحب وحنان.

حاولت أن تتعرف إلى اللحن، لكنه لم يكن مألوفاً لديها، إلا أنه كان رائعاً ومؤثراً، وكأنه يسترجع ذكرى حب مفقود، وقلب محطم. وتملكتها الدهشة وهي تشعر بعينيها تغرورقان بالدمع...

ـ لمَ تتسللين بهذا الشكل؟ لتتجسسي؟

وفجأة، أعادها ذلك الصوت الغاضب الخشن إلى وعيها، فراحت تطرف بعينيها لتحاول أن تخلي من ذهنها جمال اللحن الذي كان يعزفه.

توقف عن العزف، ووقف ساخطاً يحملق فيها بغضب واضح. فليساعدها الله!

* * *

قال بصوت كالثلج: «سألتك عما تفعلينه هنا».

ابتلعت ريقها بصعوبة، فهي لم تر قط رجلاً بهذا الغضب. وأخيراً قالت بصوت أجش: «حسب قولك، كنت أتجسس عليك، بينما لم أكن أنوي ذلك على الإطلاق. قررت أن أتمشى إلى هنا... ويبدو أنك كنت... مشغولاً، فلم أشأ أن أزعجك».

تابع النظر إليها بعينين ضيقتين وقد بدا غير متأثر بتفسيرها، بينما عادت تقول بإعجاب: «أنت تحسن العزف».

وأجفلت بألم وهي ترى أن تكشيرته ازدادت. لكنها تقول الحقيقة، فهو يعزف بشكل رائع. وتابعت تقول: «هل فكرت قط في أن تتخذ العزف مهنة لك؟».

ولاذ بالصمت... إن غضبه أرحم من هذا الصمت البارد النائي.

ألقى عليها نظرة فولاذية متفحصة قبل أن ينحني ليضع قيثارته في صندوقها، ثم يصفق الغطاء بحزم: «ما الذي تريدين أن تعرفيه بالضبط؟».

قال هذا بخشونة وهو ينتصب ويحملق فيها بنفور، فرفعت حاجبيها إزاء احتقاره لها. لم يكن يهاجمها وحسب بل عاد إلى فظاظته السابقة. حسناً، أصبحت على الأقل تعرف موقفها منه؟

وأجابت: «لا شيء على الإطلاق. لكن العزف بدا جيداً بالنسبة إليّ».

أضافت الجملة الأخيرة متحدية، فلوى شفتيه ساخراً: «حسناً، لمعلوماتك الخاصة، كان العزف فظيعاً».

ونظر إلى ملابسها البسيطة: «جاهزة للذهاب إلى دوغلاس؟».

كان ذلك واضحاً وأومأت بحزم: «إذا كنت كذلك».

ـ امنحيني دقيقتين فقط.

وحمل صندوق القيثارة ودخل البيت. يبدو أن حضورها المفاجىء أنسى جوناثان حسن السلوك! كأن يقول لها مثلاً تفضلي بالجلوس، أو هل

تريدين أن تشربي شيئاً أثناء الإنتظار؟

جلست على كرسي الخيزران الذي تركه جوناثان لتوّه، وأخذت تنظر إلى الحقول الممتدة نحو التلال.

ما المشكلة إذا سمعته يعزف على القيثارة؟ لا تصدق أنه خجل منها فهو لا تنقصه الثقة بالنفس.

عندما عاد إلى الشرفة، لم يكن مزاجه قد تحسن ولو مثقال ذرة، وكان يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أسود أيضاً.

قالت تنصحه: «ربما تحتاج إلى سترة. فالأمسيات تكون باردة أحياناً».

عاد جوناثان إلى الداخل ليحضر سترة وأمضيا الرحلة بصمت، في سيارة أخته الجاغوار التي كان يقودها وكأنه يشارك في سباق سيارات!

تنهدت توري عندما انحدرا إلى منتزه دوغلاس ثم علقا في الازدحام. فقالت: «ربما لم تكن فكرة حسنة، على أي حال».

ألقى عليها نظرة مختصرة: «سنخرج من هذه الزحمة خلال دقائق».

- لم أكن أتحدث عن هذا.

وعندما نظر إليها متسائلاً، تابعت: «مازلت مغتاظاً لما حدث منذ قليل، وليس لديّ فكرة عن السبب. لكن غيظك واضح بينما يخصص الأحد المجنون في دوغلاس للمتعة».

فقال عابساً: «ولا يمكنك الاستمتاع وأنا في هذا المزاج. أنا آسف، ولكنك.. لكنك أدركتني في لحظة كنت فيها غافلاً عن وجود من يراقبني. ولطالما كان العزف على القيثار متعتي الخاصة فقط».

فقالت بشبه ابتسامة: «لا أظنني سمعت من قبل اللحن الذي كنت تعزفه. هل ترافقه كلمات؟».

عرفت من اللمعان المفاجىء في عينيه الفولاذيتين أنها دخلت المنطقة

المحرمة. هل هناك موضوع غير حساس بالنسبة لهذا الرجل؟

توترت شفتاه: «إذا كنت تظنين أن عزفي جيد، فعليك أن تسمعيني وأنا أغنيه لكي تلاحظي النشاز في اللحن».

لكنها لا تظن أن عزفه سيىء، وقد قالت له ذلك. كما أنها لم تصدّقه بالنسبة إلى الغناء إذ لم تر أمامه نوتة موسيقية ما يعني أنه يعزف الموسيقى بالسماع. وإذا أمكنه القيام بذلك، فهي واثقة من أنه يغني جيداً أيضاً.

فقالت بنبرة محايدة: «أظنك تتواضع».

فرد بابتسامة عريضة: «أظنك تدارينني، يا آنسة بوكانان».

ارتاحت قليلاً لمزاجه: «أحاول أن أفعل يا سيد ماغواير. استدر إلى يمينك هنا. سنجد مكاناً لنوقف السيارة في الشوارع الخلفية».

كان القول أسهل من الفعل كما أدركا في الدقائق العشر التالية. لكنهما نجحا أخيراً في العثور على مكان لإيقاف السيارة قرب المتحف.

قالت توري وهما ينطلقان نحو ضجيج الناس الذين كانوا يمرحون: «سيفيدنا المشي».

أمسك جوناثان بذراعها بخفة وهما يخرجان إلى الشارع الرئيسي حيث واجها الآلاف من الأشخاص هنا وهناك. وعندما نظرت إليه متسائلة، قال: «إذا أضعتك الآن، فلن أعثر على طريق العودة إلى سيارتي أبداً».

فقالت: «إذا أضعنا بعضنا، فتذكر أنك أوقفت السيارة قرب المتحف».

لكن جوناثان بقي ممسكاً بذراعها بخفة، فشعرت بيده دافئة على جلدها. وكلما سارا أكثر، كلما ازداد الازدحام. وتقبّلت توري فكرة أن الإحتكاك ضروري إذا أرادا ألا يفترقا حتى ولو كان تأثير ذلك غريباً على نبضها! كيف يمكن للمسة منه على ذراعها أن تشعل هذا اللهب فيها وأن تجعل ساقيها واهنتين. وقفا على الشاطىء يتفرجان على هواة الغطس.

وقالت بأسف فيما المتبارية الثانية تنهي المباراة بغطس رأسها في البحر: «أرجو ألا تكون قد جاءت لتوّها من عند المصفف».

علا رأس جوناثان فوق الرؤوس وسألها: «هل جربت هذا؟».

فهزّت توري رأسها: «رغم حبي لتجربة الأشياء الجديدة إلا أنني لست غبية».

أخذ يضحك برقة: «لم أظن للحظة أنك غبية بل مجرد فضولية ومحبة للاستطلاع».

وتنهدت في داخلها... حسناً، له الحق في أن يكوّن رأيه... حتى ولو كان خاطىء.

والتفتت إليه: «هل جربت السمك الإنكليزي والبطاطا؟».

فقال وهو يمسك بذراعها: «خذيني إلى حيث يباع. فبعد ذلك الغداء الذي قدمتموه لي، ظننت أنني لن أشعر بالجوع، لكنني الآن أموت جوعاً. لا بد أن السبب هو هواء البحر».

نظرت إليه من تحت أهدابها: «لكنني ظننت أنك لن تجوع قط بعد ركوب الدراجة».

هز رأسه مسترجعاً الذكرى: «لقد قررت عدم تكرار تلك التجربة».

فضحكت بصوت أجش: «ربما سيختلف شعورك لو كنت تقود».

رد من دون اقتناع: «ربما. هل أسمع أنغاماً موسيقية؟».

كانا يسيران على الطريق بجانب رصيف الميناء فيما جموع الناس تزداد كلما أمعنا في السير. تمكّنت توري من سماع عزف فرقة الروك على خشبة المسرح، لكنها لم تكن طويلة بما يكفي لترى من فوق الرؤوس أمامها، بعكس جوناثان الذي يفوقها طولاً.

قالت بعد عدة دقائق: «العزف جيد».

فقال ببطء: «أوافقك الرأي هذه المرة».

مناقضاً بذلك رأيها السابق بالنسبة إلى عزفه على القيثارة... فنظرت

إليه مشككة: «يمكننا أن نجد بعض الطعام هنا».

شقت طريقها عبر الزحام إلى أن وصلت إلى الناحية الأخرى حيث وقفت تنتظر جوناثان لينضم إليها ويدخل الحانوت الذي يبيع السمك والبطاطا.

وبعد ذلك بدقائق، سألها: «هل هذا إجباري؟».

وكانا قد خرجا وأخذ ينظر إلى توري وهي تأكل الطعام بأصابعها.

فقالت ضاحكة: «جرّبه».

ربما لم يتناول الطعام بأصابعه في حياته، وتمتم وهو يتناول قطعة سمك ويضعها في فمه: «لو أن أسرتي تراني الآن».

كان واضحاً أنه أحب ما يأكله، فقد بدا الاستمتاع على وجهه.

قالت توري: «أمك رائعة الجمال».

فأجاب: «هذا صحيح، وماديسن تشبهها كثيراً».

ـ لا بد أنك تشبه أباك، إذن.

فسوزان ديلاني وابنتها ماديسن شقراوان رائعتا الجمال.

قال بحدة وقد عاد وجهه كالحاً كما كان في المطار: «ربما».

ما الخطأ في كلامها الآن؟ لم يكن جوناثان يحب أباه؟ هل هذا هو سبب هربه إلى جزيرة مان؟

وسألها بخشونة: «مَنْ مِنْ أبويك تشبهين أكثر؟».

فابتسمت. في الماضي، كان شعر أبيها أشقر وأصبح الآن أشيب، كما كانت أمها شقراء أيضاً.

ثم أجابت بحنان: «لا أشبه أياً منهما. أنا...».

وقاطعها إعلان مكبر الصوت فجأة: «معنا غاليتنا فيكتوري كانان».

كانت توري مستغرقة في الحديث مع جوناثان فلم تدرك أن الفرقة الموسيقية توقفت عن العزف واستلم عريف الحفل المذياع.

عاد الرجل ينادي مرة أخرى وهو ينظر إليها مباشرة متوسلاً:

«فيكتوري، تعالي وقفي معنا على المسرح».

لم تجرؤ توري على القاء نظرة على جوناثان عندما التفت الحشد لينظر إليها، وقد تملكت الإثارة بعضهم فيما تملّكت بعضهم الآخر الرهبة. لكنها في هذه اللحظة لم تكن تريد أياً من هذين!

وقال جوناثان بنعومة، وهو يقيمّها ببرودة بعينين ضيقتين: «ڤيكتوري كانان؟ هل أنت فيكتوري كانان تلك؟».

ڤيكتوري كانان تلك!

وتمكّن جوناثان، بشكل ما، من أن يضع كل الازدراء في كلماته الأربع.

نعم، إنها ڤيكتوري كانان تلك! لقد سألها جوناثان عما تعرفه عن الموسيقى، والجواب الصادق هو. أنها تعرف الكثير! المغنية الأولى للسنة الثالثة على التوالي، والحائزة على جائزة في الاحتفال الموسيقي الأخير.

حتى وإن لم يكن جوناثان يعرفها شخصياً، إلا أنه سمع بها حتماً.

بللت شفتيها الجافتين وهي تنظر إلى ملامح جوناثان التي كانت تدينها بخشونة، فشعرت بالطعام ثقيلاً في معدتها. رغم أنها لم تستطع أن تفهم السبب!

بدا واضحاً أنه لم يكن يتوقع أن يقابل المغنية العالمية ڤيكتوري كانان، وأن تأتي شخصياً إلى المطار لتقله إلى بيت أخته، لكن ذلك لم يغير حقيقة أنه لم يعرفها.

أم كان يتوقّع أن تستقبله بقولها: مرحباً أنا في الواقع ڤيكتوري كانان المغنية. وأظنك سمعت بي؟

لم تكن مغرورة إلى هذا الحد، كما أنها عادت إلى الجزيرة لتستمتع بالعزلة كغيرها من المشهورين في جزيرة مان. هنا، يمكنها أن تعود إلى ذاتها الحقيقية، فتتمشى في الشارع الرئيسي في دوغلاس، حيث كان

الناس يحيونها أو يتمنون لها التوفيق في أحسن الأحوال. كانت كأيّ من الناس المعروفين الذين يتسوقون في بلدتهم دون أن يلحظهم أحد!

وضعت طعامها الذي لم تنهه في صندوق القمامة، قبل أن تنظر إلى جوناثان مرة أخرى. كانت نظراته فولاذية وقد أطبق فكه بحزم.

قال بلهجة لاذعة: «صورك لا تشبهك كثيراً».

لم يكن ذلك مستغرباً. فمنذ ست سنوات أي عندما ذهبت إلى لندن لأول مرة، كوّنت لنفسها صورة مختلفة... صورة بقيت تزيّن الصفحات الأولى في الصحف على مدى السنوات الخمس الأخيرة. وهي صورة أخذت رغبتها تزداد يوماً بعد يوم في أن تخلّفها وراءها عندما تعود إلى موطنها...

لوت فمها ساخرة: «ما من ضرورة في الجزيرة لملابس جلدية ملونة، وتصفيف متأنق للشعر، وتبّرج خاص».

كانت زينة وجهها أكثر إثارة على المسرح، وكانت تتعمّد أن يكون وجهها شاحباً، مع الكحل الأسود وأحمر الشفاه الخمري.

إنها صورة تتركها خلفها عادة، عندما تأتي إلى موطنها. في الواقع، أدهشها أن يميزّها عريف الإحتفال حين ناداها باسمها.

ولكن، حين نظرت مجدداً إلى خشبة المسرح، عرفت جواب اللغز. كان ابن خالها تيري واقفاً على الدرجات يضحك، بعد أن رآها بين الجموع.

حركت شفتيها شاكرة وهي تحملق فيه غاضبة مظهرة له عدم سرورها لكشفه هويتها.

وعادت تلتفت إلى جوناثان، رافعة يديها بشكل دفاعي: «إسمع...».

فقاطعها: «هل ماديسن وجيدون يعلمان من أنت؟».

تنهدت وردت: «نعم، ولكن..».

وبدأ رجل قريب منهما يصفق وسرعان ما شاركه الآخرون.

ـ جوناثان...

قاطعها ببرودة بينما ازداد التصفيق والصياح: «من الأفضل أن تذهبي».

فحملقت فيه بفروغ صبر: «يمكنني أن أوضح...».

ـ لا شيء يستوجب التوضيح.

وأضاف بتهكم لاذع: «ولا تقلقي عليّ، فأنا واثق من أن بإمكاني معرفة طريق العودة إلى السيارة! هل قلت إنها قرب المتحف؟».

بكلمات أخرى لم يشأ أن ينتظرها لتصعد إلى خشبة المسرح وتغني للجمهور الأغنية التي طلبها!

فالتهبت عيناها: «وكيف أعود إلى البيت؟».

نظر حوله إلى الجمهور المرحّب بحرارة، حيث الوجوه مشرقة بالتوقّع، وقال بلهجة لاذعة: «أنا واثق من أن أيّ واحد منهم سيكون سعيداً بمرافقتك إلى بيتك! ربما تيري؟».

فصرخت غاضبة: «كنت أظن أن من التهذيب أن يغادر الانسان مع الشخص الذي جاء معه. يبدو أن وجهتي نظرنا مختلفتان».

فأجاب وملامحه لا تزال متصلبة للغاية: «على ما يبدو. أنا واثق من أنك تجيدين ما تقومين به، لكنني لا أستطيع الإدعاء أنني من المعجبين بك».

كان الجمهور يهتف باسمها مترنماً، وكانت الضجة تصمّ الآذان.

قالت له بازدراء قبل أن تستدير على عقبيها: «الأفضل ألاّ أؤخرك. أليس كذلك؟».

وابتسم جمهورها في وجهها وهي تتجه إلى خشبة المسرح وسط سرور الحشود وهتافهم.

قالت للفرقة على خشبة المسرح: «هل تعرفون أغنية الشارع

السهل؟».

وتملّكها الرجاء في ألاّ يمانعوا تطفلها على عروضهم الخاصة.

فابتسم عازف الطبل: «نعرفها؟ نحن نغنيها، ولكن ليس بالإتقان الذي تغنينها به».

فضحكت بارتياح: «فلنغنها إذن!».

وسرعان ما تجلت مهارتها الفنية وهي تشدو بالأغنية التي أوصلتها إلى الذروة منذ خمس سنوات، وشعرت بالجمهور ينسجم معها بالغناء والتصفيق. الجمهور كله... ما عدا رجل واحد...

آخر مرة رأت فيها جوناثان، كانت عندما ألقى عليها نظرة ازدراء، ثم استدار على عقبيه مبتعداً، شاقاً طريقه بين الجموع التي أخذت تحتشد عندما انتشر كالنار في الهشيم خبر أن فيكتوري كانان تغني على المسرح.

لن تعتذر لأحد عمّن تكون وعما تفعل، خصوصاً لذلك المتغطرس جوناثان مافواير. إما أن يقبل الواقع وإما أن يرفضه وقد اختار أن يرفض.

أما هي... فالله أعلم!

***

٤ ـ ليتحمّل العواقب!

ـ ما الذي تفعلينه وأنت تغنين على رصيف الميناء مع فرقة موسيقية؟

أبعدت توري سماعة الهاتف عن أذنها، تنتظر أن ينهي روبرت صراخه. وعندما سكت أخيراً، أجابته بصوت متزن، مصممة على ألا تثور: «كنت أظن إن إرادتي حرة».

لعله نصبّ نفسه حارساً لها، لكنه هو من عيّن نفسه... ولم تكن سعيدة بأخذه هذا الدور، أو على الأقل، لم تعد سعيدة.

ـ ثمة صحفي محلي ظن أن أحلامه تحققت في ليلة واحدة. فقد باع القصة وصور حفلتك الموسيقية المرتجلة إلى الصحف اليومية هنا.

وتابع روبرت يعدّد العناوين باشمئزاز: «نجاح لڤيكتوري. حفلة موسيقية مرتجلة لڤيكتوري. نجاح لڤيكتوري في موطنها».

فأجفلت توري: «أظنك قلت مرة إن الشهرة مهما كان نوعها، حسنة. فكل ما فعلته هو أنني غنيت بضع أغان».

ـ حسب قول الصحف بقيت على المسرح ساعة ونصف.

وكان هذا صحيحاً، ابتدأت بأغنية واحدة فبعثت البهجة في الحشود، وكانت الفرقة تساندها بسرور فيما الحضور يصيحون مطالبين بأغنية تلو الأخرى. لقد استغربت هي نفسها الوقت الذي مرّ عندما استطاعت أخيراً مغادرة خشبة المسرح.

كان تيري هو الذي أعادها إلى البيت تلك الليلة معتذراً بخجل عما سبّبه لها.

لم تهتم حقاً لذلك فقد كانت الأمسية مفرحة للغاية باستثناء ترك جوناثان لها مشمئزاً عندما علم أنها فيكتوري كانان. لقد صاحب غناءها تلك الليلة المرح الذي لم تعرفه منذ سنوات.

رد فعل جوناثان على هويتها الفنية مشكلته هو، كما رأت وهي مستلقية في فراشها تفكر في تلك الليلة. فهو لا يعرف مدى الانتعاش الذي تشعر به عندما لا تكون ڤيكتوري كانان ولو لأيام هنا.

قالت لروبرت: «يمرّ الزمن بسرعة عندما تمضي وقتاً مرحاً».

فصرخ بها: «هل قبضت أجراً على ذلك؟».

ـ لا تكن سخيفاً.

ردّت عليه بحدة وقد احمرت وجنتاها غضباً، رغم أنها صممت أن تبقى هادئة وأضافت: «طُلب مني أن أغني لجمهور معجب».

ـ طبعاً كانوا معجبين، فأنت «ڤيكتوري كانان».

وكان روبرت ثائراً لظهورها دون استشارته أولاً.

بإمكان ڤيكتوري كانان أن تطلب آلاف الجنيهات مقابل ظهور واحد على المسرح، والملايين من بيع أسطواناتها، لأنها ڤيكتوري كانان.

وتذكرت وجه ابن خالها الضاحك والراضي منذ ليلتين، فابتسمت لنفسها، وقالت لروبرت: «في الجزيرة أنا فقط توري بوكانان».

فرد عليها متوتراً: «هذا واضح. كل الجرائد تتساءل عما إذا كان الشعر الناعم المتطاير والوجه الخالي من الزينة صورتك الجديدة الآن».

هذا ما كان يزعج روبرت حقاً.

إن تصميمها على مغادرة لندن منذ أكثر من أسبوع كان لسببين، الأول حاجتها إلى الراحة، والثاني تعبها من الصورة المتأنقة لڤيكتوري كانان.

وكان روبرت متنبهاً للأمر.

فقالت له برقة: «ليست صورة جديدة يا روبرت. إنها حقيقتي».

حقيقتها التي بدت في السنة الماضية، وكأنها دُفنت تحت ضغط صورة ڤيكتوري كانان.

وكانت قد أخبرت روبرت قبل أن تغادر لندن بأنها تريد أن تغير تلك الصورة، حتى نوعية الأغاني التي تؤديها. ولا حاجة إلى القول إن روبرت ارتاع تماماً للفكرة، وهي تعلم سبب ذلك.

منذ ست سنوات، عندما كانت عديمة الخبرة، جالت على وكالات عدة، تطلب من يدير أعمالها. وحده روبرت، خريج اكسفورد، والجديد في العمل، قبل المجازفة.

أدركت وهي تستعيد الماضي، أنه لم يكن لديه ما يخسره. إذا هي نجحت، فسيتألق في عالم الشهرة والمجد، والمال طبعاً، وتستفيد وكالته من التعامل مع نجمة كبيرة. أما إذا فشلت فهو لن يخسر شيئاً.

لكنها لم تفشل، بل ارتقت من العروض الأولى التي رتبها روبرت لها، إلى الذروة، وأصبح الآن روبرت خائفاً جداً من أن يقلل تغييرها لصورتها وإدائها... من شعبيتها.

وقاطع روبرت تأملاتها: «ومن كان ذلك الرجل يا توري؟».

ـ رجل؟ أي رجل؟

«وصلت الآنسة كانان إلى الاحتفال مع رجل طويل أسمر غامض».

قرأ روبرت العنوان نقلاً عن إحدى تلك الجرائد ثم كرر غاضباً: «من هو الرجل، يا توري؟».

اشتدت قبضتها على سماعة الهاتف. هل لاحظ أحد وصولها إلى الاحتفال مع جوناثان تلك الليلة...

لو رأى جوناثان تلك الجرائد، لما أعجبه ذلك. كانت الجزيرة تنشر جريدتين يوميتين، لكن الصحف اللندنية تصل إلى هنا يومياً.

ـ إنه صديق للأسرة.

قالت ما هو صحيح رغم ما في كلامها مراوغة.

ـ من أي نوع؟ إذا كان ثمة عواطف محتملة، يا توري...

منذ سنتين ارتكبت توري غلطة في التورط عاطفياً مع روبرت ودفعت ثمنها، لأن روبرت يظن رغم فشل علاقتهما الشخصية، أن له عليها دالة أكثر من مجرد مهنية.

وأجابت بحدة واستياء: «لا، ما من عواطف. أخبرتك أنه مجرد صديق لا أكثر».

لم تعد واثقة حتى من ذلك بعد تلك الليلة!

فتابع وكأنها لم تقاطعه: «على الوكالة أن توجّه كل وسائل الدعاية...».

ردت كاذبة بعنف: «ما من دعاية، فقد رحل. ترك الجزيرة».

كانت واثقة من أن روبرت إذا أمسك بهذا الخيط الرفيع (رجل طويل أسمر غامض) فإن عالم الصحافة سيحاول أن يلاحقه! وبإمكانها أن تتصور ذعر جوناثان... وغضبه!... إذا استطاع أي من أولئك الصحافيين أن يقتفي أثره.

ـ إنه ليس من الجزيرة إذن؟

وكادت تلمس العبوس في صوته.

ارتجفت شفتاها اشمئزازاً. كانت تعرف جيداً رأي روبرت في الجزيرة وسكانها: «لا، هو ليس مواطناً».

سكت قليلاً، ثم عاد يقول: «ولكن، حتى ولو...».

فأجابت بحزم: «حتى ولو لا شيء. ما من قصة للكتابة لأنه ليس رجلاً غامضاً. جوناثان هو...».

فسألها على الفور: «جوناثان ماذا؟».

تساءلت قليلاً عما ستكون ردة فعله إذا أخبرته بأن جوناثان هو في الحقيقة ابن الممثلة الأميركية الاسطورية سوزان ديلاني، وشقيق حاملة

الأوسكار الممثلة ماديسن ماغواير.

وهذا بالضبط السبب الذي يمنعه من أن يذعن! فأجابت بهدوء، نادمة على زلة لسانها هذه: «جوناثان فقط، يا روبرت. والآن، الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحاً، ولديّ أعمال أقوم بها. . . وأنا واثقة من أن لديك أعمال، أنت أيضاً».

ولكنها كانت مستيقظة منذ ساعات، فالحياة في مزرعة بهذا الحجم تبدأ في الصباح الباكر. ونظراً لإصابة أمها، لديها الكثير من الأعمال المنزلية لتقوم بها.

رد مذعناً بضيق: «لا بأس، يا توري. متى ستعودين؟».

فلوت شفتيها: «أنا في بيتي الآن».

فقال مزمجراً: «أنت تعلمين ما أعنيه. جولتك الأوروبية ستبدأ بعد أقل من أسبوعين، ومازال لدينا الكثير. . .».

قاطعته قائلة: «أنا في إجازة يا روبرت. . . أنسيت؟ سأفكر في الجولة الأسبوع القادم».

في باريس، وأمستردام وبرلين وزوريخ وروما، وكل تلك الفنادق المجهولة الأسماء التي عليها أن تقيم فيها أثناء تلك الجولة!

ـ ولكن. . .

ـ إلى اللقاء يا روبرت.

قالت ذلك ووضعت السماعة.

فتحت المجيب الآلي. إذا كانت الصحافة، كما قال روبرت غاضباً، متلهفة لملاحقة القصة، فهي لا تريد أن تجيب على مكالماتهم.

بقيت مشكلة إنذار جوناثان بما سيأتي! لقد تركها تلك الليلة معبراً بصراحة عن رأيه فيها، وفي ڤيكتوري كانان! لكن إذا ابتدأت الصحافة بملاحقة الأمر، كما تظن، فما على الصحفيين إلا أن يبحثوا قليلاً ليعلموا أن الرجل الطويل الأسمر والغامض هو في الواقع، جارها. وجواباً على

تساؤلها، راح الهاتف يرن. وابتدأ المجيب الآلي يعمل فتلقت أول رسالة من صحافي من وراء البحار يتعقب آثارها.

ليس لديها خيار. . . ستذهب وتنذر جوناثان! ولم يكن هذا عملاً يسرّها بشكل خاص، فبعد ما حدث بينهما يمكنها أن تتصور نوع الاستقبال الذي ينتظرها. وما ستقوله لجوناثان، لن يحببها إليه، كذلك.

عندما دخل أبوها البيت، التفتت إليه، فقد أمضى في الحقول ساعتين يتفقد الأغنام.

ـ مرحباً يا حبيبتي.

حياها بحرارة وهو يسحب من تحت إبطه جريدة أحضرها معه. وقال لها بسعادة وهو يبسط الجريدة على مائدة المطبخ: «تصدرت الصفحة الأولى مرة أخرى».

فقالت عابسة: «هذا ما أخبروني به».

ـ إنها صورة جميلة لك أيضاً.

لم يرفع أبوها بصره ليلحظ تجهم ملامحها: «هذه المرة تبدو الصورة مثل توري التي نعرفها أنا وأمك ونحبها».

لم تستطع منع نفسها من إلقاء نظرة، فأدركت على الفور السبب الذي جعل روبرت يغضب من نشرها في الصحف.

مثيرة! كانت الكلمة المستخدمة في وصف ڤيكتوري كانان، أما المرأة في الصورة فبدت فتاة عادية! بدا واضحاً أنها كانت تستمتع بوقتها إذ ارتسمت الضحكة على وجهها وبدت غير عابئة بآلة التصوير. أما شعرها الأسود فيلمع كالأبنوس، وعيناها تتألقان فيما وجهها يتوهج احمراراً وبدت شفتاها بلون الورد. لم تستطع أن تتصور صورة أقل شبهاً بڤيكتوري كانان المثيرة.

ـ روبرت غير مسرور.

تكلمت بذهن شارد وهي تقرأ ما كتب تحت الصورة. عبس أبوها،

فقد كانت الكراهية بين الرجلين متبادلة، وسألها: «اتصل بك، أليس كذلك؟».

أومأت بالإيجاب وهي تتابع قراءة الجريدة. نعم، وقرأت ما كانت تبحث عنه: «كانت ڤيكتوري بصحبة رجل طويل أسمر غامض!».

ليس لديها خيار، عليها أن تذهب وتنبّه الغامض ذاك.

ـ عليّ أن أخرج. إذا اتصل أحد الصحفيين أو ما شابه، لا تذكر اسم جوناثان. بل أخبرهم أنني غير موجودة.

أضافت بقنوط عندما أخذ الهاتف بالرنين: «آه».

كان أبوها يقرأ الصحيفة، وعندما وصل إلى ذكر مرافقها لذلك المساء، بدا عليه العطف ونظر إليها: «ماذا تظنين أن جوناثان سيفعل إزاء الأمر؟».

فقالت تهوّن الأمر: «لقد جاء إلى الجزيرة ليمضي فترة من العزلة والهدوء لذا لا أظن أن ردة فعله ستكون جيدة».

فضحك بهدوء: «الأفضل إذن أن تسرعي بالذهاب، أليس كذلك؟».

قررت توري أن تذهب على الدراجة. على الأقل لن يستطيع جوناثان أن يتهمها هذه المرة بالتسلل للتجسس عليه، وضجيج الدراجة يهدر في الجوّ.

هذا الصباح لم تسمع صوت موسيقى على الشرفة الخلفية، فتوجهت إلى الباب الأمامي وقرعت الجرس.

بعد نحو خمس دقائق، ورغم أن السيارة متوقفة في الكاراج، رأت أن جوناثان ليس في البيت، لذا استدارت لتعود أدراجها. عليها أن تعود لاحقاً ما دام لم يلحق بها مخبرو الصحف فهي لا تريد أن تقود الصحافة إلى جوناثان، و. . .

ـ نعم؟

جمدت مكانها لهذا الصوت الخشن المتسائل. والتفتت ببطء إلى

المنزل.

كان جوناثان واقفاً عند العتبة، بشعره القاتم المبلل، وقد ارتدى مئزر حمام قاتم الزرقة وبدت ساقاه عاريتين حتى الركبة كما كان حافياً.

ـ كنت آخذ دوشاً عندما سمعتك تصلين. ما هو سبب تشريفك لي بزيارة؟

أدركت أنه ما زال غاضباً للطريقة التي اكتشف فيها أنها ڤيكتوري كانان.

ردت عليه بجفاء: «الشرف لي. هل لي بالتحدث إليك لدقائق؟».

قال ببطء: «سبق وتحدثت».

فردت بحزم: «على انفراد».

نظر حوله فلم يرَ سوى مزرعة أبيها، وحوالى مئتي نعجة، والمنطقة الريفية غير المسكونة. فقال بتهكم: «لا أظن أن النعاج ستسبّب أي مشكلة، أليس كذلك؟».

أخذت توري نفساً عميقاً، واشتدت قبضتها على الخوذة في يدها ثم تنهدت، شاعرة بالألم والحقارة لمعاملته: «يمكنك أن تدعوني إلى فنجان قهوة».

ـ وهل يستوجب ما تريدين قوله فنجان قهوة؟

احمر وجهها استياءً. ما كان لها أن تأتي إلى هنا اليوم، وكان عليها أن تتركه لأولئك الجشعين. على الأقل، لن يكون عليها أن تتحمّل فظاظته وقلة أدبه مرة أخرى!

تراجع إلى الخلف فاتحاً الباب على مصراعيه، وقال ساخراً: «هل لك أن تتفضلي لتشربي فنجان قهوة يا. . . ڤيكتوري؟».

ـ شكراً.

وسارت متصلبة الجسم إلى المطبخ في مؤخرة المنزل، فلطالما جلست فيه مع ماديسن لتشرب القهوة وتلعب مع الطفلة كيلي. ومن

المؤكد أنّ ما من مجاملات اليوم!

حاولت ألاّ تنظر إلى جوناثان وهو يعد الشاي. وهذا لا يعني فقط أنها لم تر من قبل رجلاً في ثياب الحمام، بل لأن هذا الرجل هو جوناثان ماغواير.

توقف عما كان يفعله، لينظر إليها متفحصاً، ثم قال: «أظن أن الألوف لا بل الملايين يسعدهم أن يحضّروا القهوة لڤيكتوري كانان».

لكنه ليس منهم، كما أقرت توري في داخلها. فقد بدا عليه أنه يفضّل أن يفعل أي شيء ما عدا تحضير القهوة لها... ولعله يفضل أن يشنقها.

ـ أعني ملايين الرجال.

فضاقت عيناها: «لدي معجبات من النساء أيضاً».

فرفع حاجبيه ساخراً: «أحقاً؟ لا يمكنني أن أفهم السبب».

توهج وجهها احمراراً وهي تحاول أن تتحكم في طبعها... لن ينفع بشيء إذا انتهى بهما الأمر إلى تبادل الشتائم! وقالت باستياء: «ربما لأن بإمكاني أن أغني».

ـ أحقاً؟ لم أكن أعلم. وكما سبق وقلت لك، لست من جمهورك المتحمّس.

لن يجعل الأمر سهلاً بالنسبة إليها. لا بأس، فهو يشعر بأنه مخدوع، ولكن هذا تفسيره الخاص لما حدث. أما تفسيرها فمختلف تماماً، فهي لم تتعمد خداعه. إنها توري بوكانان عندما تعود إلى الجزيرة، ابنة دان وثلما بوكانان.

وتناولت من يده فنجان القهوة: «شكراً».

ـ بالنسبة إلى مقامك العالي، كان ينبغي أن أقدم لك الشاي في فنجان من الخزف الصيني، ولكن...

فقاطعته بضجر وقد توهجت عيناها: «هل لك أن تكفّ وتعلم أن حالنا ليس بهذا الشكل، حتى أنني أعددت لك الغداء».

توتر فمه وهو يجلس إلى المائدة، ليقول متهكماً: «هذا غريب».

رشقت توري القهوة المرة قبل أن تجيب. ثم هتفت: «ليس أغرب من تصرفك معي».

فأجاب مفكراً: «هذا صحيح. كيف كانت الحفلة الموسيقية تلك الليلة؟».

حاول أن يغير الموضوع برفق فألقت عليه نظرة استياء أخرى لعلمها أنه غير مهتم حقاً وإلا لما تركها كما فعل.

ـ اسأل نفسك.

وسحبت الصفحة الأولى من جريدة أبيها، وبسطتها على المائدة أمام جوناثان.

تحوّلت ملامح جوناثان وهو يقرأ المقالة ببطء من الازدراء إلى التركيز العابس، ومن ثم إلى التكشير! وانتظرت هي حتى يصل غضبه إلى حد الكلام.

وقف فجأة، وأخذ الجريدة ليقرأ المقالة مرة أخرى. وأخيراً رفع بصره قائلاً بغضب: «رائع! رائع تماماً!».

وقذف بالجريدة إلى المائدة، ثم قبض يديه على جانبيه بعنف.

ابتلعت ريقها بصعوبة: «أنا...».

فانفجر فيها بعنف: «ولا كلمة، يا ڤيكتوري. لا أريد منك أيّ كلمة... وإلا خنقتك قبل أن أفكر في النتائج!».

هذا ما ظنته... لكن بدا عليه أنه قادر على تنفيذ ما قاله الآن!

أيّ شخص يظن أنها تعمدت ذلك، فيما لم تكن في الواقع أكثر منه سروراً لغزوهم عزلتها. إن نظراته الملتهبة، وتوتر فكه، وخطوط الغضب المرتسمة حول فمه، تدلّ على أنه لم يكن مهتماً بما تشعر به.

ـ أنا...

أردف بين أسنانه المطبقة: «قلت إنني لا أريد أيّ كلمة، يا

ڤيكتوري».

ـ أنا ليست كلمة، إنها. . .

تمتم وهو يشدها بخشونة لتقف: «لا تقولي إنني لم أحذّرك، يا ڤيكتوري، مرتين».

ثم عصرها بين ذراعيه، حابساً أنفاسها. وعانقها بوحشية. . .

لقد عانقها جوناثان ماغواير! وبازدراء. . . . !

انتزعت نفسها منه، ولم يكن الأمر سهلاً وهو يضمها إليه بهذا العنف الذي شعرت معه إن كل عضلة وعصب في جسده يضغط عليها.

أخذت تدفع، من دون فائدة، ذراعيه الفولاذيتين اللتين تحيطان بها: «كفى. . . يا جوناثان. . . .».

ـ ليس في نيتي التوقف، يا ڤيكتوري. . .

صرخت فيه وهي تدفع ذراعيه عنها: «إسمي توري».

فازداد اشتداد يديه الفولاذيتين وهو يقول بخشونة: «أنت ڤيكتوري كانان. لا أستطيع أن أصدق أنني لم أميّزك!».

هز رأسه مشمئزاً من نفسه وهو ينظر إليها مضيفاً: «منذ سنوات وأنا أقرأ عن مآثرك في الصحف. الحفلات الصاخبة، الرجال والـ. . .».

فأشارت إلى الصحيفة الموضوعة على المائدة: «ألا تنبئك نصف الحقيقة المكتوبة في هذه الجريدة عن مدى الصدق في تلك القصص؟».

نعم، شاركت في حفلات، فجزء من صورتها يقتضي أن تظهر في الحفلات مع الأغنياء والمشهورين. نعم، كان هناك رجال. . . ولكن ليس كما يعني جوناثان، لأنه لم يكن لديها وقت تضيعه على مثل تلك العلاقات.

تلك الصورة التي يتحدث عنها هي ما تريد أن تتخلص منه. . . !

رغم أنها كانت ترى من ملامح وجهه العنيفة أنه لا يريد أن يسمع تبريرها، وأنه لن يصدقها إذا أخبرته عن مدى الوحدة التي تعاني منها.

منذ ست سنوات، لم تكن هي نفسها تصدق ذلك، عندما ذهبت إلى لندن تبحث عن الشهرة والنجاح. . . كما لم يكن لديها فكرة عن الثمن الذي عليها أن تدفعه.

أما بالنسبة إلى روبرت، فلم تكن سوى سلم يرتقيه إلى النجاح. وبالنسبة للآخرين، الذين تجرأوا على الاقتراب منها، كانت تمثل غنيمة يتأبطون ذراعها لفترة. ولم يولوا يوماً توري الحقيقية أي اهتمام.

ولكن جوناثان، جوناثان الثائر الذي يعتقد أنها استغفلته، لم يكن في مزاج يسمح له بأن يصغي إلى ذلك!

حدق إليها باحتقار: «لو أن نصف هذه القصص فقط حقيقي. . . .».

في الظاهر، نصفها حقيقي. لكن هذه القصص لم تتحدث عن عزلتها، ووحدتها، وكيف أنها، ليلة بعد ليلة، تأوي وحدها إلى شقتها الفاخرة. لقد انتهت منذ وقت طويل مرحلة التلذذ بعزلتها، ولم تعد تشعر بسوى وحشتها، وبالصمت المهيمن عليها ساعة بعد ساعة وليلة بعد ليلة.

عندما تعود إلى الجزيرة، ومع والديها، تجد الرضى والسكينة كما تجد الخلاص من تلك الوحدة المرهقة.

تنهدت بصعوبة، وهزت كتفيها بسأم: «لعل ما يقولونه صحيح، فالناس يصدقون فقط ما يريدون أن يصدقوه».

أظلم وجه جوناثان: «أتتهمينني بالتحامل عليك؟».

فابتسمت من دون مرح: «أنا أتهمك بأنك تعاملني كما يعاملني أيّ شخص آخر. . . ما عدا أبويّ، وأسرتي، وأصدقائي في الجزيرة. . . فتجعلني مجرد رمز جنسي».

قالت هذا باشمئزاز، فنظر إليها بعينين ماكرتين: «مسكينة أيتها الصغيرة. هل هذا هو الأمر؟».

انتفضت لازدرائه الواضح وأجابت: «ليس لديك فكرة».

ـ أخبريني عن ذلك.

كان يشدّها بين ذراعيه، فلم يسعها التفكير بشكل متزن، فكيف بإفهامه الأمر!

عندما كانت أصغر سناً، قبل أن تذهب إلى لندن، كانت تقرأ ككل المراهقات، مقالات عن الأثرياء والمشاهير الذين يشكون من الوحدة التي ترافق نجاحهم. كانت تعتقد أن أقوالهم هراء، ولكنه لم يكن كذلك. فقد شعرت خلال السنوات الماضية، بوحدة وشوق إلى الصداقة الحقيقية لم تشعر بهما من قبل.

أخذ جوناثان يراقبها بعينين ضيقتين وهو يرى المشاعر تتعاقب على وجهها، وقد أصبح الآن حائراً أكثر منه غاضباً.

نظرت إليه من تحت أهدابها المسدلة والدموع قد علقت بأطرافها. رأي هذا الرجل يهمها... ولكنه، لا يشعر نحوها بسوى الاحتقار.

أبعدها عنه، ثم نظر إلى وجهها بعينيه الفولاذيتين: «أخبريني. هل ينفع هذا التمثيل عادة؟».

طرفت بعينيها وقد فوجئت بتجدد الهجوم عليها دون مبرر: «لا أدري ما تعني...».

ـ بل تدرين بكل تأكيد.

ودس يديه في جيبي بنطلونه: «وتعلمين أن ذلك كاد ينفع. فقد ابتدأت أشعر بالأسف من أجلك. ولكن، بالنسبة إلى الدموع، ربما كنت لأصدّقك، لولا أنها مبالغ فيها، مع الأسف».

عادت تغالب دموعها المذنبة. تمثيل؟ تمثيل... كيف يجرؤ؟ من يظن نفسه؟

ـ أحقاً؟

كان صوتها الآن يرتجف غضباً، وانحنت تلتقط خوذتها حيث وضعتها على أرض المطبخ.

وأومأ قائلاً: «النساء يبدأن بالتمثيل عندما تفشل الوسائل الأخرى».

فتوهجت عيناها: «لن أضجرك بتمثيلي أكثر من ذلك!».

ـ آه، لست ضجراً، يا ڤيكتوري. وفي الواقع رفهت عني كثيراً.

لم تشأ أن تعلم ما يعنيه وقالت ببرودة بلهجة كاذبة: «ومع ذلك، حان وقت ذهابي. أرجو أن تستمتع بإقامتك في الجزيرة، يا سيد ماغواير».

واستدارت لتخرج من المطبخ رافعة الرأس.

يا له من متغطرس....!

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ عشاء تحت ضوء القمر

قال والد توري وهو يستمع إلى الرسائل التي تركت على المجيب الآلي: «أظن أنّ عليك أن تستمعي إلى هذه، يا حبيبتي».

نظرت إليه بعينين متبلدتين لا حس فيهما. رافقها غضبها من جوناثان طول طريق العودة إلى بيتها وخلال فترة العصر، لكن مع حلول المساء خف شعورها.

كان جوناثان فظاً يوم استقبلته في المطار، لكنها تعتقد أنه تعمّد أن يكون مؤذياً هذا الصباح.

لماذا؟ هذا ما يحيّرها الآن.

كان يريد أن يصدّق عنها الأسوأ، وبدا أنه يستمتع بإهانتها وراح يلمّح إلى أنها تذرف دموع التماسيح. ومرة أخرى، سألت نفسها عن السبب.

ـ لا بأس، يا أبي.

أجابته بضجر وهي تجلس إلى طاولة المطبخ. لم تتصور مضمون هذه المكالمة، بعد أن اتصلت بها معظم الصحف اليومية، راغبة في معرفة المزيد عن ذلك الغامض الذي كان يرافقها مساء الأحد. كان فضول لا تريد أن تشبعه!

ـ توري؟ هنا جوناثان... جوناثان ماغواير...

ابتدأ الجهاز يعيد الإجابة فانتصبت توري في جلستها وقد بدت اليقظة

على وجهها وهي تنظر إلى أبيها، الذي رفع حاجبيه برثاء. لم تستطع أن تتصور أن جوناثان اتصل فقط ليسمعها مزيداً من الإهانات.

تابع باختصار: «... أنا مدين لك باعتذار. أنا... هل لك أن تتصلي بي عندما تتلقين هذه الرسالة؟».

هذا الرجل جريء فعلاً ليتصل بها بعدما قاله هذا الصباح. كيف يتوقع منها أن ترد عليه!

ـ توري...؟

فنظرت إلى أبيها، ومن لمحة العتب على وجهه، أدركت أنها ستستمع منه إلى محاضرة عن التسامح والنسيان.

تنهدت: «أبي، لو أنك سمعت الأشياء التي قالها لي هذا الصباح...».

فقاطعها بلطف: «أظنني سأنزعج لو كنت مكانه. لنواجه الأمر، يا توري. لقد عانى المسكين ما يكفي من تدخل الصحافة في حياته، قبل أن يواجه الأمر هنا، من بين كل الأمكنة».

إنه على حق... كانت تعلم أنه محق، ولكن...

ـ إنه فقط يريد أن يعتذر، يا حبيبتي، ولا أظن أنه غالباً ما يفعل ذلك.

قاطع أبوها أنكارها ليقمع عصيانها. يبدو أنه فهم طبيعة الرجل أثناء تناوله الغداء معهم نهار الأحد الماضي.

استمر العصيان ظاهراً على ملامحها لثوانٍ ثم أخذت تبتسم، إذ لم يحدث قط أن استطاعت مقاومة ظرف أبيها: «قد يستحق أن نصغي إليه».

ـ ستتصلين به إذن؟

ـ سأفكر في الأمر.

لم تكن واثقة من قدرتها على الإصغاء إلى ما هو مجرد كلام لا ينبع من القلب في اعتذار جوناثان. لعله لا يريد فقط أن يكدر جارة أخته.

أخذ أبوها يداعب شعرها بعطف وهو يسير إلى الباب، قائلاً: «إنها

فتاتي الطيبة. أمك تريح كاحلها قبل العشاء وأنا ذاهب لإيواء الدجاج قبل أن ارتاح لهذا المساء».

بمعنى آخر، لديها عشر دقائق يمكنها فيها أن تتصل بجوناثان.

كل ما في الأمر أنها لا تريد أن تسمع اعتذاره الذي لا ينبع من قلبه، ولا أن تقبل الاعتذار مكرهة، هي أيضاً. لقد أعطى جوناثان رأيه الصريح بها هذا الصباح.

أخذت تذرع أرض المطبخ مفكرة، واعية للدقائق الثمينة التي تمر.

وأخيراً، قررت. ستصغي إلى اعتذاره وتتقبله، ثم تنهي الأمر، وبهذا يكون الكل سعيداً.

أجاب صوته: «جوناثان ماغواير».

اشتدت قبضتها على السماعة وقلبها ينضح بالعداء ثم قالت متحدية، رغم انتباهها إلى أنه ذكرها باسم توري في رسالته: «فيكتوري كاتان».

رد بصوت رقيق: «توري، هل تلقيت رسالتي؟».

فقالت بحدة: «هذا واضح».

ـ وإلا لما اتصلت؟ أليس كذلك؟

ـ لا.

فقال ضاحكاً برقة: «أما زلت غاضبة مني؟».

ـ نعم.

فتنهد: «الحق معك. أنا مدين لك باعتذار».

ـ وهو مقبول. هل هذا كل شيء؟

فقال بعنف: «لا، على الإطلاق. أريد أن أدعوك على العشاء».

جمدت توري مكانها، مقطبة بحيرة. أتراه يدعوها على العشاء؟...

تابع يقول وكأنما قرأ أفكارها: «حسناً ليس في المطعم. نبعد أن تعرفوا عليك يوم الأحد، لست واثقاً من صواب هذه الفكرة. هل تودّين أن تأتي إلى هنا للعشاء؟».

في البيت؟ ولكن...

انتبهت أنها تتصرف كتلميذة دعاها إلى الخروج أجمل فتى في المدرسة... والأسوأ من ذلك أنها تتصرف وكأنها لم تتلق دعوة من قبل!

ـ هل نسيت اهتمام الصحافة بنا؟

فقال وقد تصلب صوته: «لا. لم أنس. لكنني واثق، بناء على خبرة سابقة، أنك أكثر من قادرة على تجاوز ذلك».

إنه يعني قدرتها على تجنب الصحفيين الفضوليين. وقد يكون الأمر صحيحاً، لكنها لا تريد أن تتحمّل كل ذلك العناء من أجل جوناثان...

سألته بلهجة لاذعة: «هل لديك سبب جيد يجعلني أقبل دعوتك؟».

فأجاب: «لأنني سألتك بكل كياسة».

نعم، لقد فعل بكل تأكيد، كما أنه اعتذر عن تصرفه المهين. ومع ذلك، كانت توري تحقق في دوافعه...

سألته ببطء: «هل بمكنك أن تطبخ؟ أم أن هذه الدعوة مجرد حيلة لتدبُّر من يطبخ لك؟».

ضحك جوناثان من قلبه: «لماذا لا تحضرين لكي تري بنفسك؟».

لم تكن واثقة من أنها تريد أن تمضي الأمسية معه! فهو لم يهنها وحسب، بل عانقها أيضاً. ولكنها بعد ثوانٍ، استجابت....

إنها تكذب على نفسها إذا قالت إنها لا ترى جوناثان جذاباً. لكنها جاذبية لا تقود إلى شيء.

وأخيراً قال جوناثان ببطء: «جوابك يستغرق وقتاً طويلاً. لا تقولي إنك خائفة، يا توري!».

سألته هازئة: «خائفة منك؟».

فأجابها ساخراً: «بل من طبخي».

لا، ليست خائفة. خصوصاً منه.

سألته بتوتر: «متى تريدني أن أحضر؟».

ـ في السابعة والنصف، إذا كان العشاء في الثامنة؟

ـ حسناً، إلى اللقاء.

ووضعت السماعة قبل أن يتابع ملاحظاته الساخرة.

***

عندما دخلت توري، رفعت أمها بصرها عن الجريدة التي تقرأها وقالت: «تبدين حسنة المظهر، يا حبيبتي».

تلقت مديح أمها بترحيب بالغ. لم تعرف توري لماذا تكلّفت عناء انتقاء ما تلبسه وهي سترى جوناثان.

لو أنها ستتناول العشاء مع أي رجل آخر، وفي ظروف أخرى، لما واجهت أيّ مشكلة. لكن يبدو أن جوناثان يظن أن ڤيكتوري كانان هي حورية فاتنة في ملابس جلدية.

لهذا السبب، ارتدت الليلة ثوباً قاتم الزرقة كلون عينيها، ومحكماً على جسدها، يصل طوله إلى الركبة. كانت ساقاها حريريتين ومنحها حذاءها العالي الكعبين طولاً أما شعرها فتركته مسدلاً على كتفيها، واقتصرت زينة وجهها على اللون الوردي الذي منح وجنتيها تألقاً. وكان لون شفتيها دليل التمرد الوحيد فيها، إذ اختارته أحمر لامعاً منح فمها شكلاً مغرياً.

ورأت وهي تنظر إلى صورتها في المرآة منذ دقائق، أنها لم تكن الليلة توري بوكانان التي عرفها جوناثان، ولا ڤيكتوري كانان التي لم يشأ أن يعرفها!

ابتسمت لأمها وقالت: «شكراً، يا أمي. هل أبي جاهز؟».

ـ لقد خرج ليتحدث قليلاً إلى الصحافيين في الطريق، وسيقول عرضاً إنه ذاهب لزيارة جدتك. وإذا تسللت من الباب الجانبي أثناء الهائه لهم، إلى المقعد الخلفي من السيارة، فسيوافيك بعد وقت قصير.

من السخرية اللجوء إلى مثل هذه الذرائع لكي تتمكن توري من

الخروج. ولكن المزيد من الصحافيين كانوا يصلون إلى المزرعة ليراقبوا كل حركة في البيت الريفي.

ـ إلى اللقاء إذن.

وتقدمت لتقبل أمها على خدها. فأومأت أمها: «إتصلي بأبيك عندما تريدين العودة إلى البيت».

لو تابع جوناثان سلوكه المهين الذي اعتمده في الصباح، فلن تتأخر طويلاً.

لم يكن الاختباء في المقعد الخلفي للسيارة مدثَّرةً إلى ما فوق رأسها ببطانية، طريقة لائقة للخروج إلى السهرة. ولكنها كانت تعلم بالتجربة، أن لا سبيل آخر للخروج على الإطلاق.

وبعد ذلك بدقائق، قال لها أبوها ضاحكاً: «يمكنك الخروج من السيارة الآن».

انتصبت جالسة في المقعد الخلفي، وأخذت تسوّي شعرها المشعث بينما انعطف أبوها بالسيارة نحو طريق منزل آل بيرن.

لو أن الظروف مختلفة، لسارت على قدميها كما فعلت مساء الأحد، لكن الأمر أصبح مستحيلاً الآن.

عندما أوقف أبوها السيارة أمام البيت، قال لها بمرح: «استمتعي بوقتك».

ـ أبلغ حبي إلى جدتي.

أجابته بذهن شارد، وهي تنظر إليه يبتعد، كارهة أن تتقدم نحو الباب، فأقل ما يمكن أن يقال عن طبع جوناثان أنه زئبقي.

ولم يكن لديها فكرة عما سيكون عليه هذا المساء!

ـ توري!

حياها بحرارة حالما قرعت الجرس، وقد أدهشتها السرعة التي فتح بها الباب. لا بد أنه كان ينتظر وصولها في الردهة. نظر إلى الطريق الخالي

وسألها: «كيف جئت إلى هنا؟».

نظرت إليه بحذر، فالإهانات التي قذفها بها لا تزال حية في ذهنها: «أحضرني أبي بسيارته. وسأتصل به حين أود الذهاب».

نظر إليها ضاحكاً وقد أدرك بسهولة تحذيرها من أنها قد ترغب في الذهاب بعد دقائق إذا تصرّف كما فعل هذا الصباح. وقال لها بصوت أبح: «تبدين جميلة للغاية هذا المساء».

فقالت من دون أن ينقص حذرها ذرة واحدة: «شكراً وأنت كذلك».

لقد أبرز قميصه الرمادي عرض كتفيه ونحافة خصره، وكان يتلاءم تماماً مع البنطلون الأسود.

حرك حاجبيه الأسودين وسألها ساخراً: «انتهى المزاح. هل تتفضلين بالدخول؟ أم تريدينني أن أحضر لك العشاء إلى هنا؟».

قالت وهي تتبعه إلى الداخل: «إنها أمسية جميلة. جميل أن نأكل في الخارج».

ـ أوافقك على هذا. ولهذا السبب وضعت المائدة على الشرفة.

قطع غرفة الجلوس ثم خرج من باب الشرفة فيما تبعته هي إلى المائدة المعدّة لجلسة شاعرية.

كانت المائدة مجهزة بالكؤوس البلورية والآنية الفضية وتزيّنها شموع فضية خضراء. وثمة كرسيان من الخيزران وضعا في مواجهة الحديقة والتلال البعيدة.

التفتت لتلقي على جوناثان نظرة فاحصة من تحت أهدابها السوداء. كانت هذه جلسة للإغراء...

بادلها جوناثان نظرتها دون أن تطرف عيناه، وقال بمرح: «كما قلت، الأمسيّة أجمل من أن نمضيها في الداخل. والآن، هل أحضر لك بعض العصير؟».

ـ أفضّل مياه معدنية. من فضلك.

وتقدمت إلى الكرسي الهزاز، كارهة أن تجلس إلى مائدة معدّة لاثنين.

وعندما عاد جوناثان إلى الداخل لإحضار العصير والمياه المعدنية حدثت نفسها بأنها أخطأت في المجيء إلى هنا. لم تعرف ما الذي تتوقعه حين قبلت دعوته، ولكن ليس هذا بكل تأكيد!

هل أنت خائفة يا توري؟ أخذت تسأل نفسها. لقد أمضت سنوات وهي تأسف لأنها لا تستطيع أن تخرج وتجتمع بالرجال كسواها من النساء. والآن، ها هي تجتمع برجل على العشاء، ولكنها من التوتر بحيث أخذت يدها ترتجف وهي تمدّ يدها لتأخذ كأس الماء من يد جوناثان.

جلس على الكرسي الهزاز بجانبها، ماداً ساقيه الطويلتين أمامه، بينما كانت قدماها لا تصلان إلى الأرض.

سألها ببطء: «هل ترين جيدون وماديسن كثيراً عندما يكونان في الجزيرة؟».

ـ نعم، إذا كنت أنا أيضاً في الجزيرة.

كانت تشعر بذراعه التي مدّها على مسند كرسيها، دون أن يلمسها. تشعر بحرارتها على كل حال.

هزّ جوناثان رأسه: «لم يذكرا قط أنهما يعرفانك».

فضحكت: «هذا ليس غريباً. أنا أيضاً لا أخبر الناس أنني أعرفهما».

لاح شبه ابتسامة على فمه وهو ينظر إلى التلال البعيدة: «ما رأيك في جيدون؟».

فوجئت بهذا السؤال، فجيدون صهره. ما الرد الذي يتوقّعه على سؤال كهذا؟.

أجابت بحذر: «أظنه زوجاً وأباً رائعاً».

فقال بفروغ صبر: «أعرف هذه الناحية منه. ما رأيك فيه كرجل؟».

ازداد تقطيب جبينها، وتصلّبت باستياء: «ما الذي تعنيه

بالضبط. . . ؟».

بعد الإهانات التي وجهّها إليها هذا الصباح، لم يعجبها التحوّل الذي طرأ على هذا الحديث مطلقاً.

أجابها وهو يلمس سخطها: «ما الذي أعنيه ضمناً؟ أنا لا أعني شيئاً يا توري، فأنا أعلم تماماً أن جيدون غارق في حب أختي».

ـ إذن. . . ؟

فوقف وقال بخشونة: «إنسي السؤال».

بعدئذ، وضع كأسه على المائدة ليضيف قبل أن يعود إلى المطبخ: «سأحضر الصنف الأول من الطعام».

تملكت توري حيرة بالغة. إنها تعرف جيدون وماديسن، لكنها تعرف ماديسن أكثر. . . لأن جيدون يفضل الانطواء على نفسه، ما عدا مع ابنته كما تذكرت توري بعطف. كان يبدو غارقاً في حب زوجته، لكنه يحب أن يحتفظ بعواطفه لنفسه، ما عدا مع طفلته إذ يبدو مسحوراً بيديها الصغيرتين. لكن توري أحست أن هذا ليس ما يريد جوناثان أن يعرفه. . .

عاد بأطباق السلمون المدخّن ووضعها على المائدة قبل أن يشعل الشموع، لم تهب نسمة هواء تحرك لهبها: «أتريدين المزيد من المياه».

ـ شكراً. . .

كانت متكدرة مما دار بينهما من حديث. فقالت له فجأة، بعد أن جلسا معاً يتناولان السلمون الطازج واللذيذ: «ألا يعجبك جيدون؟».

فأجاب بفتور: «أخبرتك أنني لا أشك في حبه لزوجته وابنته. كان أبوه جون بيرن، كما تعلمين».

أضاف جملته الأخيرة فجأة.

نعم، كانت تعلم. كما تعلم أن الممثل الأسطوري مات منذ أكثر من ثلاثين سنة في حادث سيارة، بسبب السُكر. وكان قد تخلّى عن زوجته وابنه من أجل امرأة أخرى قبل ذلك بعدة أشهر.

قالت برقة: «جيدون غير مسؤول عن أعمال أبيه أو شخصه».

نظر جوناثان إليها بعينين ضيقتين وهو يكاد لا يلمس طعامه: «ألا تصدقين أننا نرث الطباع عن آبائنا؟».

ـ إذا كنت تسألني عما إذا سيتحول جيدون إلى سكير وزانٍ لأن أباه كذلك، فجوابي هو لا، لا أعتقد ذلك. يجب أن نأخذ في الاعتبار أموراً أخرى مثل الخلفية الاجتماعية، والثقافة، وقوة الشخصية وضعفها. ثم أننا لا ننشأ مشابهين تماماً لوالدينا، ولا لأخوتنا. . . فحتى للتوائم شخصيات مختلفة.

أجابها جوناثان بخشونة، دون أن تفوته نظرتها المتسائلة: «ربما يسهل عليك أن تنفي ذلك لأنك تعلمين من أنت».

ضحكت برقة. لقد أصبح الحديث غير مريح: «هل يعلم أي منا ذلك؟ هل يريد أي منا أن يعلم حقاً؟».

تعمّدت أن تكون وقحة لكي تلطّف الجوّ بينهما.

تنهد جوناثان: «هذا ما جئت إلى هنا بحثاً عنه».

فحملقت فيه: «لكي تعرف من أنت. . . ؟».

أومأ وأجاب: «نعم، وبعض الأمور الأخرى».

فقالت مازحة: «أنت جوناثان ماغواير».

بادلها النظر بثبات: «أحقاً؟».

هزت كتفيها وردت: «هذا ما قلته أنت».

ـ لا بد أنني هو.

فرفعت حاجبيها الأسودين: «أما زلت صغيراً على مرحلة فقدان الهوية؟».

أليست هي نفسها صغيرة على ذلك أيضاً؟ ومع ذلك كانت تقوم ببحث مماثل في أعماق روحها؟. . .

أخذ نفساً عميقاً، وقال بابتسامة مغتصبة: «الحق معك. أنا كذلك.

كلي طعامك قبل أن يبرد».
وأشار إلى طعامها الذي لم تكد تمسه.
ـ لقد برد على كل حال.
فقال مازحاً: «تذوقيه فقط».
ابتسمت له فتبدّد التوتر الذي كان بينهما رغم أن توري لم تكن واثقة تماماً لماذا نشأ أصلاً. كان واضحاً أن جوناثان يحب صهره، راضياً به كزوج لأخته، ومع ذلك...
كان جوناثان بمثل غموض جيدون. في الواقع، لو لم يخبراها أن جوناثان شقيق ماديسن، لافترضت أنه شقيق جيدون. لم يكن الرجلان متشابهين فقط في طباعهما، بل في شكلهما أيضاً، فهما طويلان، بشرتهما سمراء وشعرهما أسود، كما أن أعينهما رمادية لا تكشف سوى القليل القليل من أفكارهما.
وقف جوناثان فجأة، وقال: «سأذهب وأتفقد اللحم».
ـ هل يمكنني أن أساعدك؟
ـ وهل ساعدتك أنا يوم الأحد؟
فكرت قليلاً ثم أجابت: «لقد أكلت طعامي من دون تذمر».
ـ بالنسبة إلى طاه متفوّق، أنت لست طاهية سيئة.
علق على كلامها بعنف ساخر قبل أن يتوارى داخل المنزل حاملاً الصحون الفارغة.
وهو أيضاً ليس طاهياً سيئاً، وقد اكتشفت ذلك بعد أن تناولت أول لقمة من اللحم المحضّر بالعسل وبصلصة الخردل. كان ألذ طعام ذاقته توري فقالت له بإعجاب: «اللحم لذيذ للغاية».
وضحك جوناثان لإعجابها الظاهر وقال بصوت رقيق: «هل صفحت عني لفظاظتي هذا الصباح؟ كنت غاضباً... للغاية. ما كان لي أبداً أن أصب غضبي عليك بتلك الطريقة. كنت أنت وأسرتك غاية في الشهامة

معي منذ وصولي إلى هنا».
لاحظت أن اعتذاره صادق، رغم أن بعض الأشياء التي اتهمها بها هذا الصباح لم تكن تقبل الصفح. ولكن لعلها أصبحت الآن... متفهمة؟ كما أخذ ذلك الصوت الخافت في داخلها يجادلها. ربما... وتقبّلت ذلك على كره منها.
وقالت له بمرح: «هل يمكنني تأجيل الجواب إلى ما بعد تناول الحلوى؟».
فأجاب بابتسامة أسف: «هذا يعتمد على مدى حبك للفريز والقشدة».
فقالت بابتسامة عريضة: «أنا أعشقهما!».
ـ في هذه الحالة، يسعدني أن انتظر جوابك.
بقي المساء دافئاً، ومع تزايد الظلام، أصبح ضوء الشموع على المائدة نورهما الوحيد.
تحدثا عن كل شيء كما أدركت توري. وكرهت الحديث عن مهنتها ومسؤولياتها، كما كره هو الحديث عن أي شيء عدا الجزيرة وبعض الأماكن التي رآها أثناء زيارته هذه.
فكرت متأملة في أن هذا أسلم وأقل ضرراً، فعلى الأقل هما لا يتجادلان أو يهينان بعضهما.
بدا لها جوناثان أكثر جاذبية بعينيه المتألقتين، وأخذت تتأمل بإعجاب ذقنه المربعة القوية وفمه الذي بدا لها مثيراً. أما عيناه...!
أتراها ظنتهما باردتين حقاً عندما رأتهما لأول مرة. إنهما الآن دافئتان رقيقتان وهما تنظران إليها. وضع كأسه على المائدة، ثم سألها ببطء: «توري...؟».
ابتلعت ريقها بصعوبة. سيعانقها جوناثان مرة أخرى.
تحركت نحوه ببطء وقد أخذ قلبها يقفز بين ضلوعها. ومن دون أن

يلمسها جعلها أسيرته.

ـ أنت حقاً امرأة جميلة جداً.

وحركت أنفاسه الحارة خصلات الشعر على صدغها. كان رجلاً رائعاً! طويل أسمر ووسيم. لكنها لن تدعه يعرف. . . !

أجابت بصوت أبح: «شكراً».

ـ أخبرني. . .

ونظر إليها متفحصاً، ويده تبعد شعرها عن عينيها: «هل أنت على علاقة بأحدهم حالياً؟».

فرددت متوترة: «لي علاقة بشخص؟».

ـ نعم، ذلك الشاب تيري أو ربما غيره.

فتصلب جسمها: «ذلك الشاب تيري هو ابن خالي، شقيق عروس السبت الماضي. أتظنني سأكون هنا، لو كنت على علاقة بآخر؟».

ابتسم برقة وعيناه الدافئتان على وجهها المتوهج: «لم أكن أحاول أن أهينك، يا توري».

شعرت بفروغ صبر. إنه حقاً لا يحاول ذلك! لكنها مازالت حساسة على هذا الرجل ومن السهل جداً أن تشعر بالإهانة. . .

وقالت عابسة: «آسفة».

فهز رأسه: «تحفظك مفهوم يا توري، لأنني لم أكن ثابتاً على رأي واحد».

تنهد وهو يستند إلى الخلف وذراعه لا تزال ممتدة خلف ظهرها: «الحقيقة أني لا أشعر بالثبات على أي شيء، حالياً».

شعرت توري بانحسار الدفء في قربه منها، فنظرت إليه مفكرة. . . شعرت منذ البداية أن ثمة شيء يزعج هذا الرجل، لكنها لم تكن تعلم ما عليها أن تفعل ليتكلم. أو ما إذا كان ينبغي عليها ذلك، في الحقيقة!

من الواضح أن جوناثان أكثر تحفظاً منها. وتملكها الشك في أن يقبل

أيّ تدخل منها في شؤونه الخاصة.

قال ببطء وهو يحدق بذهن شارد، إلى التلال المبهمة المعالم في العتمة الخفيفة: «المكان هنا رائع جداً».

فوافقته بهدوء: «جداً، ومثالي للنقاهة أيضاً».

فالتفت إليها بحدة: «وهل تظنينني بحاجة إلى شفاء؟».

وكان صوته متوتراً مثقلاً بالتهكّم.

ـ لا أدري. وأنت؟

ـ ربما.

وتنهد ثم وقف وسار إلى آخر الشرفة حاملاً معه كأسه: «منذ سنتين، كنت أعلم من أكون وإلى أين أنا ذاهب. لم أكن أظنني أعلم. . .».

وأدار وجهه والعبوس على ملامحه، فأخذت تنظر إليه بعينين ضيقتين ثم قالت فجأة: «ما الذي حدث منذ عامين ليغيّر هذا؟».

عاد فالتفت إليها بعينين متألقتين: «في الظاهر، لا شيء على الإطلاق».

ـ وخلف الظاهر؟

ـ خلف الظاهر؟

كرر ذلك بمرارة، وهو يتحرك بتوتر: «لقد تغيّرت. صدقي أو لا تصدقي، يا توري، لطالما كنت من النوع المتحكم في نفسه تماماً».

إنها تصدق ذلك، تماماً كما تصدق أن شيئاً ما حصل له منذ سنتين فجعله غير واثق من نفسه، ومن وجهته في الحياة. وتتوقف معرفتها بما حصل على رغبته في أن يخبرها.

ـ هذه سخريّة.

انفجر بهذه الكلمة فجأة وهو يبتعد عن الحافة بحزم، وعاد لينظر إليها: «ها أنذا أتناول العشاء مع امرأة لا يتردد ملايين الرجال في الزحف على ركبهم ليكونوا معها. . . وكل ما لديّ لأكرمك هو كآبتي وإشفاقي

على ذاتي».

وهز رأسه مشمئزاً من نفسه.

ابتسمت ساخرة: «أظن في قولك بعض المبالغة!».

تأملتها نظرات جوناثان بإعجاب حار، ثم تمتم بصوت أجش: «لا. أنا لا أبالغ».

لم تستطع أن تواجه تلك النظرات، فحوّلت نظراتها هي أيضاً، إلى تلك التلال البعيدة. لقد سمحت لهذا الرجل بأن يعانقها، وأدركت أنها تبادله مشاعره، كما أدركت أيضاً أن هذا جنون من ناحيتهما، هما الإثنين. عليها خلال أيام قليلة أن تعود إلى لندن، وفي النهاية سيعود جوناثان إلى أميركا. ومشاعرهما هي مجرد تجاذب لن يؤدي إلى شيء.

وقاطع جوناثان أفكارها المزعجة برقة: «هل تريدين المزيد من العصير؟».

لم تره مكتئباً على الإطلاق هكذا... وتمنت لو يخبرها عما يزعجه.

وأجابت: «لا، شكراً».

ابتسمت له وهي ترفض، فقد استمتعت بهذه الأمسية بالرغم من شكوكها السابقة. نظرت إلى الساعة الأنيقة في معصمها، وأدهشها أن تراها قد تجاوزت الحادية عشرة: «تأخرت. وعلى أبي أن يستيقظ مبكراً في الصباح. أظن أنّ عليّ أن اتصل به لكي يأخذني».

فقال معترضاً: «لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد. سآخذك إلى بيتك بنفسي عندما تصبحين جاهزة».

ـ أظن أن عليّ أن أذهب الآن.

ووضعت كأسها على المائدة ووقفت وهي تقول عابسة: «ولا أظن أنّ من الصواب أن تأخذني بنفسك إلى بيتي. عندما غادرت البيت كان هناك نصف دزينة من الصحافيين في نهاية الطريق».

فهز كتفيه: «إذا كان ذلك لا يزعجك فلن يزعجني».

أتراهما عادا إلى السؤال عما إذا كانت على علاقة بشخص آخر؟ ألم يصدقها جوناثان حين أخبرته أن ليس لديها علاقات؟

ـ توري....؟

وأصبح قربها بخطوتين، فوضع يده تحت ذقنها ليرفع وجهها إليه: «كنت أشير إلى حقيقة أنك هنا في إجازة، إجازة أفسدتها تخمينات الصحافيين».

ـ الأمر سيان بالنسبة إليك.

فقال بخشونة: «أنا لست في إجازة».

فقطبت جبينها. ما لم يكن هنا في إجازة... فأي عمل يقوم به هنا إذن؟ وكيف يقوم به في منزل آل بيرن؟ اقترحت عليه أن يذهب إلى الكازينو أثناء وجوده هنا، فهذا عمل أسرته كما أخبرها، فرفض بحزم بالغ. فما الذي يقوم به هنا إذن...؟

هزت رأسها، لو أراد جوناثان أن يخبرها لفعل.

ـ هل أعتبره رفضاً لعرضي أن أوصلك؟

رفعت رأسها فوجدت جوناثان يراقبها بعينين ضيقتين.

كانت مستغرقة في التفكير فلم تدرك أنه ينظر إليها وهي تهز رأسها!

فقالت بمرح: «لا، على الإطلاق، سيسّر أبي جداً لأنه لن يضطر إلى الخروج من البيت مرة أخرى هذا المساء».

وربما قطع المخبرون الأمل منها الآن فعادوا إلى فنادقهم، في هذا الوقت المتأخر: «شكراً على العشاء، يا جوناثان. يبدو أن بإمكانك أن تطبخ».

وابتسمت بمكر.

ـ وهل صفحت عني لفظاظتي السابقة؟

ومرة أخرى، أصبح قربه منها مدمّراً. استطاعت أن تحس بالحرارة المنبعثة من جسده، فقالت بصوت أبح: «لقد صفحت عنك».

جمد مكانه فجأة وهو ينظر إليها: «لسبب ما، أكره إنهاء هذه السهرة».

مائلت كلماته الرقيقة أفكارها إلى حد جعلها عاجزة عن كبح رجفة خفيفة شعرت بها. وتلهفت في داخلها إلى قربه.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت بهدوء: «نحن نعلم أن هذا ما ينبغي أن نفعله».

ـ أحقاً؟

طرفت بعينيها وأخذت تنظر إليه غير متأكدة: «أظن ذلك».

ولكن، حتى هي نفسها لم تكن مقتنعة بذلك! أمال رأسه جانباً وهو ينظر إليها مفكراً، ثم سألها: «هل لك أن تمضي نهار غد معي؟».

شعرت بذلك الاختلاج الذي أصبح مألوفاً في قلبها: «ظننتك جئت إلى هنا لتكون وحدك؟».

فضحك ساخراً من نفسه: «هناك أمر آخر اكتشفته منذ قدومي إلى هنا... وهو أنني لم أعد سعيداً بمفردي».

قالت ضاحكة: «في هذه الحالة، أظن أنّ من الأفضل أن أنقذك من السأم!».

فأجفل: «هل هذا ما عنته دعوتي لك؟ أنا آسف».

لكنها اومأت قائلة: «لم تكن تعني هذا على الإطلاق».

تركها وتراجع إلى الخلف ثم سألها مازحاً: «يا آنسة بوكانان، هل لك أن تمنحيني شرف قضاء نهار الغد معي؟ ما رأيك؟».

فأجابت ساخرة: «حسناً! يسعدني قضاء النهار معك. ماذا يدور في ذهنك؟».

حتى وهي تطرح هذا السؤال، شعرت بوجهها يتوهج احمراراً، فقد بدا سؤالها مثيراً للاستغراب.

ضحك بصوت خافت لعبوسها بخجل. ثم توقف عن الضحك

بالسرعة نفسها التي بدأ بها. اقترح، باختصار أن يأخذها الآن إلى بيتها، وكأنما أدهشه صوت ضحكته.

وربما أدهشه ضحكه، كما أخذت توري تفكر وهي تجلس بجانبه في السيارة عائدة إلى المزرعة. فيبدو أنّ جوناثان لم يضحك كثيراً... منذ سنتين تحديداً.

لم تستطع منع نفسها من التساؤل عما أحدث ذلك التغيير فيه. لا بد أنه كان حدثاً هاماً للغاية. كان جوناثان غاية في الثقة بالنفس والتحكم بها. لكن شيئاً ما حدث منذ سنتين وغيّر هذا...

سألها إن كانت على علاقة عاطفية... ربما كان عليها أن تطرح عليه السؤال! فرجل في الثانية أو الثالثة والثلاثين، لا بد أنه مرّ بعلاقة واحدة جادّة حتى الآن. أيكون قطع العلاقة سبب هذا التغيير فيه؟

أثبطت هذه الفكرة من عزمها على تمضية النهار معه. إذا كان جوناثان يعاني من آثار علاقة، فلا بد إذن أنها كانت علاقة جادة للغاية. أليس من الأفضل أن تبقى بعيدة عنه؟

لكن الوقت فات على سحب قرارها، من دون أن تدفع جوناثان إلى طلب توضيح.

يبدو أن المخبرين قد تفرقوا، إذ لم تجد لهم أثراً أثناء رحلتهما. وعندما أوقف جوناثان السيارة أمام الباب، كانت الأنوار مضاءة في الغرف السفلى، ما يعني أن أبويها ينتظران اتصالاً منها. ولاحظت سيارة تعرفها متوقفة قرب الكاراج.

قالت لجوناثان بذهن شارد وهو يفتح لها باب السيارة لتخرج: «شكراً لهذه السهرة الجميلة».

كان انتباهها مركزاً على تلك السيارة المجهولة. لم يذكر أبواها أنهما يتوقعان زواراً هذا المساء، ولم تعرف توري ما إذا كانت السيارة لأحد من الأسرة.

وأجاب جوناثان: «بكل سرور. متى آتي لآخذك غداً؟».

ـ أنا...

وسكتت وهي تسمع صوت خطوات على الحصى خلفها. التفتت عابسة نحو الصوت. لقد مضى وقت طويل منذ كان أبوها يجرها إلى المنزل مؤنباً عندما تتأخر ليلاً!

ـ توري حبيبتي!

حيّاها صوت مألوف قبل أن يتقدم رجل من الظلام نحو النور المنبعث من الردهة. لكن توري عرفته من صوته قبل أن يقترب.

إنه روبرت. ما الذي يفعله هنا؟

وعندما نظرت إلى جوناثان، أدركت من برودة المفاجىء وكآبة سحنته أنه ألقى نظرة واحدة على هذا الرجل الطويل البالغ الوسامة... وسمع قوله لها يا حبيبتي... ثم قام باستنتاجه الخاص.

* * *

٦ ـ لعبة القدر

رأت من ملامح روبرت، وهو ينظر إلى ذراع جوناثان حول خصرها، أنه أيضاً استخلص استنتاجاته الخاصة. ومن الطريقة التي أظلم فيها وجهه بغضب، أدركت أن تلك الاستنتاجات لم تعجبه على الإطلاق!

وعاد يقول بتلك اللهجة المطاطة التي كانت تجدها ذات يوم جذابة: «حبيبتي... كان أبواك في منتهى اللطف معي طوال السهرة، لكنني ابتدأت أظن أنك لن تعودي إلى البيت».

وأمسك بذراعيها قبل أن ينحني ليعانقها.

وعلى الفور، شعرت توري بذراع جوناثان تترك خصرها. ودون أن تعلم ما إذا تعمّد تصرفه أم لا جذبها روبرت من قبضته.

كانت متأكدة من أمر واحد، وهو أن عناق روبرت المتملك لم يعجبها. في الواقع لم يعجبها أن يعانقها على الإطلاق.

جذبت نفسها منه بحدة، وعيناها الزرقاوان تلمعان في الظلام: «ماذا تفعل هنا يا روبرت؟».

ابتسم دون اهتمام وهو يلتفت إلى جوناثان: «بما أن سلوك توري الحسن قد فارقها مؤقتاً، من الأفضل أن أقدم نفسي بنفسي».

أضاف بلهجة متحدية وهو مازال ممسكاً بذراع توري بتملك: «روبرت مونتغمري. من المؤكد أنك جوناثان».

www.elromancia.com

ضاقت عينا جوناثان وهو يبادل الرجل نظرات باردة كالثلج: «هل هذا مؤكد؟».

فأجاب روبرت ضاحكاً بثقة: «آه، نعم».

تصلّب جسم توري غضباً. كان روبرت يتعمد أن يعطي جوناثان انطباعاً بأنه يعلم عنه كل شيء. ولم يسرّ هذا الانطباع جوناثان على الإطلاق، خصوصاً وأن الشخص الوحيد الذي قد يمنحه هذه المعلومات، هي توري نفسها.

سألته بضيق: «متى جئت يا روبرت، وكيف؟».

ـ لم يكن ذلك سهلاً، صدقيني. لست واثقاً من أن أصحاب النفوذ هنا يريدون زائرين في الجزيرة.

تكلم باستخفاف ثم تابع: «لقد عانيت الكثير للحصول على تذكرة سفر لهذه الليلة».

إذن فقد جاء هذا المساء، لكن لم يخبرها بسبب حضوره. . .

فقالت: «لأنها مناسبة أسبوعيّ السباق. ما الذي تفعله هنا، يا روبرت؟».

ـ جئت لأزورك، طبعاً.

أجاب بحنان وهو يضع ذراعه حول كتفيها بخفة: «جئت لأزورك، طبعاً».

وهذا لم يفت جوناثان، كما لاحظت توري غاضبة وهي ترى نظراته تنتقل ببرودة بينهما.

حملقت في روبرت قبل أن تبتعد عنه بشكل واضح، ثم أجابت بفظاظة: «ومن قال إنني أريد منك زيارة؟».

فابتسم روبرت بشكل صبياني لجوناثان، الرجل الذي يكبره بثلاث أو أربع سنوات على الأكثر! وقال له: «أرجو أن تعذرنا، لأننا تشاجرنا أنا وتوري، قبل حضورها إلى الجزيرة منذ أسبوع. ويبدو أنها لم تسامحني

بعد».

وعبس بظرف.

رأت توري أن الرجلين مختلفان تماماً. فشعر روبرت طويل قليلاً، وعيناه ضاحكتان، كان وسيماً إلى أقصى حد، وجسمه نحيف رياضي. لكن تلك الوسامة والظرف الصبياني يخفيان أنانية بالغة وتصرفات ينتهجها دوماً لمصلحته الخاصة. أما جوناثان، فكان وسيماً بشكل غامض، وهو أيضاً جميل القامة والبنية. . . كما أن مظهره البارد المتغطرس يخفي طبيعة دافئة لرجل يهتم بصدق بأسرته.

كانت توري تعرف أيهما تفضّل. وقالت: «ليس هناك ما أسامحك عليه، يا روبرت. لديك تصوراتك عن مستقبلي كما أن لديّ تصوراتي الخاصة، وهي متعارضة».

وأخذت نفساً عميقاً ثابتاً قبل أن تلتفت إلى جوناثان قائلة: «لقد استمتعت حقاً بهذه السهرة».

كانت عيناها الزرقاوان تتضرعان إليه كي يلطّف من ملامحه الجامدة.

لم يظهر أيّ تجاوب، بل على العكس، فقد بدا فمه أكثر تجهماً وهو يقول مقوّساً شفتيه بازدراء: «أهلاً بك. والآن، أظن أنّ عليّ أن أذهب وأتركك مع. . . السيد مونتغمري لتتصافيا».

وأدركت الانطباع الذي أوحاه روبرت لجوناثان عن علاقتهما، فقد جعله يعتقد أنهما عاشقان حصل بينهما مجرد خلاف بسيط ككل المحبين!

مدت يدها تضعها على ذراع جوناثان، واشتدت أصابعها حين أحست به يتوتر: «في أي وقت ستتقابل غداً؟».

طرحت عليه هذا السؤال بصوت أجش فقد دعاها لقضاء النهار معه، وستنتهز الفرصة المناسبة لتشرح له بالضبط ما بينها وبين روبرت.

رفع جوناثان حاجبيه الأسودين، ورمق روبرت بسرعة قبل أن يعود فينظر إليها ساخراً: «فلنترك الدعوة مفتوحة إلى وقت آخر. . هممم؟ أنا

واثق من أنك ستكونين مشغولة في الأيام القليلة المقبلة . . . بضيفك».

وأضاف الجملة الأخيرة متهكماً.

لم يكن روبرت ضيفها . . . وهو أمر سيدركه بسرعة حالما يغادر جوناثان منزلها مهما تكن الترتيبات التي اتخذها والداها المهذبان لاستقباله!

ألقت نظرة أسى على وجه جوناثان الذي لم يلن وأنزلت يدها عن ذراعه ثم قالت بهدوء: «ربما أنت على حق. استمتع بإقامتك».

مال برأسه بحدة، ثم التفت إلى روبرت بتحية مختصرة قبل أن يعود إلى سيارته لينطلق دون أن يلقي عليها نظرة واحدة. أصابها الأمر بالذعر، فأخذت تنظر إليه وهو يبتعد بسيارته. وعندما تقدّم روبرت منها، واضعاً ذراعه حول كتفيها مرة أخرى، أجفلت غاضبة، ثم نفضت عنها ذراعه بعنف. وعندما توارت سيارة جوناثان عن النظر، استدارت تحملق فيه، ثم سألته ثائرة: «من تظن نفسك لتفعل هذا؟».

بدا عليه عدم الاهتمام وهو يرفع حاجبيه الأشقرين ساخراً: «إذن، هذا هو جوناثان الغامض. . .؟».

تصلب جسدها وسألته: «نعم؟».

فقال بازدراء: «لا تقولي إنك ترينه جذاباً، يا توري. هذا الرجل أشبه بكتلة من الثلج».

احمرت وجنتاها غضباً: «عندما أريد رأيك، يا روبرت، سأطلبه منك. تصبح على خير».

استدارت واتجهت إلى المنزل.

لكنه لحق بها وقال بمرح، قد بدا الرضا واضحاً في عينيه: «لقد دعاني والداك للبقاء هذه الليلة».

فوقفت قبل أن تفتح الباب، وقالت بحدة: «لكنني لم أدعك».

هز كتفيه وكأن صلابتها حيّرته: «أليس في قولك شيء من

الفظاظة؟».

رأته يحدّثها وكأنها طفلة بحاجة إلى مداراة، فقالت بغضب: «سمّه ما شئت. هناك العديد من الفنادق يا روبرت، وأنا أعلم أنك قد تجد صعوبة في الحصول على غرفة في هذا الوقت من السنة، ولكن بإمكانك دوماً أن تطلب من زوار الجزيرة في المخيمات أن يمنحوك مأوى لهذه الليلة!».

تكلمت بشماتة وهي تتخيّل روبرت نائماً في خيمة بملابسه الفاخرة، فبعثت الفكرة الإشراق في نفسها.

هل ظنت يوماً أنها تحب هذا الرجل حقاً؟ وأخذت تلوم نفسها بصمت. إنه ليس سوى تلميذ مدرسة كبير مولع بالملابس الأنيقة والحياة المريحة.

غريب أنها منذ شهور قليلة، كانت تعتقد أنها تدين بنجاحها لروبرت، وهو وهم تعمّد أن يغرسه في نفسها. وأدركت مؤخراً أن الواقع هو العكس، ولهذا السبب أصبح روبرت فجأة حريصاً عليها إلى حد أنه طلب منها الزواج.

كانت تعلم سبب إسراع روبرت بالمجيء إلى الجزيرة هذا المساء، إذ يبدو أنه وجد ما كتبته الصحف عن مرافقها الغامض يوم الأحد، مزعجاً للغاية. فكيف حاله وهو يصل إلى هنا هذا المساء ليراها خارجة مرة أخرى مع جوناثان الغامض ذاك؟

بدا عليه الضيق: «الأمر لا يحمل المزاح يا توري».

فرفعت حاجبيها: «لا؟ لكنني أراه مسلياً تماماً!».

مدّ يده ليمسك ذراعها وهي تفتح الباب: «ألا تظنين أنك تتصرفين بشكل خاطىء نحو أبويك؟».

وأضاف بصوت خافت: «كانا من التهذيب بحيث قدما إليّ هذه الدعوة، وسيكون غريباً أن تخبريهما أنني سأذهب إلى الفندق. . .».

عرفت في سرّها أنه محق، ومع ذلك قالت تتحداه: «سيكون غريباً

بالنسبة لمن؟».

سيظن أبواها أن روبرت لم يعتبر بيتهما لائقاً بما يكفي لاستضافته إذا غادر إلى الفندق. . .

ـ كفّي عن التصرّفات الصبيانية، يا توري. إنه منتصف الليل تقريباً ولا يمكنني دخول أي فندق في مثل هذا الوقت.

وتنهد بفروغ صبر. فرفعت حاجبيها وقالت تذكّره بنعومة: «لا أتذكر أن هذا العذر منعك من قبل من دخول الفندق».

ـ هل عدنا إلى ذلك الموضوع؟

وضاقت عيناه الزرقاوان بشكل ينذر بالخطر بينما تبدد ظرفه الظاهر كلياً: «لقد أخبرتك حينذاك، أنني كنت مستاء لأنك جعلتني أنتظر قبل أن تمنحيني الجواب على طلبي الزواج منك».

فقالت له باشمئزاز: «كنت مستاءً لدرجة أنك اخترت امرأة بعد العرض المسرحي، وأخذتها معك إلى الفندق لتمضي الليلة معها؟».

لم تكن تعلم ممّن كانت مشمئزة أكثر، من نفسها لأنها فكرت في الزواج منه، أم من روبرت الذي دفعه عدم الاهتمام إلى أن يعاشر امرأة أخرى في الليلة نفسها التي طلب فيها يدها للزواج.

ـ دعنا ننسى ذلك، يا روبرت. ما دام والداي طلبا منك أن تبيت الليلة هنا، وقبلت أنت، فعليك أن تبقى.

وأضاف بحزم عندما أشرق وجهه بالانتصار: «لكنني أريدك أن تغادر البيت في الصباح الباكر».

فقال: «اتفقنا».

قبل ذلك بسهولة، كما رأت توري فهي تعرف أن روبرت يرجو أن تلين وتغيّر موقفها منه. لكن خيبة الأمل تنتظره!

مشكلتها الحالية هي جوناثان. لقد أمضيا سهرة ممتعة معاً، واتفقا على الاجتماع غداً، لكن وصول روبرت المفاجىء ألغى ذلك. متى سترى

جوناثان مرة أخرى؟

والأهم من ذلك، هل ستراه مرة أخرى على الإطلاق؟

* * *

قال لها روبرت بسرور بالغ وهو يدخل إلى الأستديو: «كنت أعلم انني سأجدك هنا».

لم تلتفت إليه، وهي تركز اهتمامها على العزف على قيثارتها. كانت تحاول أن تتذكر ذلك اللحن الشجي الذي عزفه جوناثان مساء الأحد الماضي. لقد تذكرت معظم ما سمعته، لكنه لم يكن مكتملاً. لم تعلم ما إذا كان يرافقه كلمات. . .

سار روبرت دون مبالاة ووقف بجانبها قرب الأريكة التي تجلس عليها، وأومأ معجباً وهي تتابع عزف اللحن من ذاكرتها: «هممم. إنه جميل. هل هذا لحن جديد تحفظينه؟».

فأجابت دون أن تنظر إليه: «شيء من هذا القبيل».

ـ لقد قدمت لي أمك لتوّها أروع فطور.

فقلبت شفتيها: «البيض طازج. واللحم يأتينا من السوبر ماركت، كما أن أمي لم تعد تخبز في البيت منذ سنوات، لذا فالخبز المحمّص نحضره من المكان نفسه».

رفع حاجبيه الأشقرين: «نحن نثرثر بأشياء تافهة هذا الصباح، أليس كذلك؟».

صوته المتملق سبب لها ضيقاً بالغاً، فقالت: «والآن، كما سبق ولاحظت، أنا مشغولة. فإذا لم يكن لديك شيء هام تقوله. . . ؟».

كان جوابه على كلامها أن تهالك على الأريكة بجانبها، فلم تجد خياراً آخر سوى النظر إليه. وكان كعادته بالغ الأناقة. . . بنطلونه الرمادي يتلاءم مع القميص الرمادي الفاتح، وحذاؤه أسود لمّاع. يا لها من ملابس تليق بالعمل في مزرعة!

وعندما رأى نظرة التقييم في عينيها، رفع حاجبيه بأسف وتمتم برقة: «يمكنني دوماً أن أتعلم».

ـ ولماذا تزعج نفسك؟

لم تشأ أن تتظاهر بأنها لم تفهم ما يعنيه ووقفت لإعادة القيثارة إلى مكانها. بدت بالغة الرشاقة في بنطلونها الأزرق الملتصق بجسمها وقميصها الأزرق، والتفتت تواجهه: «أنت لن تمكث هنا طويلاً».

فقال: «لا يمكنني أن أصدق أنك غاضبة مني، يا توري. وعلى أيّ حال، يبدو أنك تمضين وقتاً ممتعاً مع رجل أميركي كئيب. أنت لا تفهمين استيائي من هذا الأمر».

حملقت فيه وقد كرهت وصفه لجوناثان: «لم أكن أمضي وقتاً ممتعاً مع أحد. وحتى لو فعلت، فأنت لا تملك الحق في انتقادي».

قال يذكرها بصوت أبح: «لقد عرضت عليك الزواج يا توري».

فرددت ساخرة: «توري؟».

كان روبرت يصرّ دوماً على أن يناديها باسمها الكامل ڤيكتوري: «يمكنك أن تسأل يا روبرت، لكنني، كما أتذكر، رفضت طلبك بشكل حازم».

فنظر إليها: «كنت غاضبة حينذاك. . .».

حين ذهبت إلى غرفته في الفندق منذ أسابيع استقبلتها امرأة صهباء لا ترتدي سوى منشفة؟

ـ حسناً، أنا لست غاضبة الآن. . . والجواب مازال (لا). وفي الواقع. . .

ـ أتعلمين يا ڤيكتوري؟ أصبحت طباعك عنيفة للغاية.

أطبقت فمها بحدة من هذه الإهانة، وحملقت فيه وقد احمرت وجنتاها. وتابع هو دون رحمة: «في الواقع، أصبحت موضع سخرية ومثالاً للغرور والنزق وحدة الطباع. . .».

ـ أنا. . أنت. . .

ـ ما الذي حدث يا ڤيكتوري؟ ألا تستطيعين احتمال سماع الحقيقة؟

هل هذه هي الحقيقة؟ وهل أصبحت واحدة من المغرورات المثيرات للملل اللاتي عرفتهن طوال السنوات الماضية؟ من أولئك الأشخاص الذين لا يتحدثون إلا عن أنفسهم ولا يهتمون إلا لمهنتهم؟

ـ ليس من السهل عليّ أن أقول لك هذه الأشياء، يا ڤيكتوري.

تابع كلامه وهو يقترب منها على الأريكة: «ولكن على أحد ما أن يقولها لك».

وكانت تعلم أنه يفضّل أن يكون المتكلّم لأنه يستمتع بذلك كما يبدو.

ولكن ليس هذا هو المهم حالياً. هل أصبحت فعلاً واحدة من أولئك الناس الذين يؤمنون بشعبيتهم إلى حدٍ يصبحون معه أنانيين لا يتحركون إلا بدافع مصلحتهم الذاتية؟

نظرت إلى وجه روبرت الوسيم متفحصة. كان التعبير البادي على ملامحه رقيقاً ونظراته لا تنبىء بشيء.

لا، إنها ليست كذلك على الإطلاق! روبرت هو الذي يتكيف وفق الظروف والمصلحة، إلى حد يجعله يكذب عليها لكي يحصل على ما يريد. . .!

نعم. . تماماً.

لوت فمها ساخرة: «محاولة جيدة، يا روبرت. كدت تجعلني أصدقك مرة أخرى. بدلاً من. . .».

وقفت ونظرت إليه ببرودة: «لقد جعلتني للتو أتخذ قراري. لا تقم بحجز المزيد من الحفلات لي سوى ما سبق والتزمت به. لديّ الآن خطط أخرى؟».

قال بغضب وصوته كالفحيح، وقد انتصب في جلسته على الأريكة وهو ينظر إليها بعينين جامدتين: «لقد سبق وحذّرتك ببساطة، لا يمكنك

أن تأخذي إجازة سنوية في هذه الظروف وفي مهنتك».

فقالت معنّفة: «حذار، يا روبرت. ظرفك يتبدّد».

ـ تباً لظرفي.

وانتصب واقفاً فثبتت توري في مكانها متحدية إياه بخشونة: «ما أريد أن أقوله هو أن العقد بيننا مدته خمس سنوات، يا روبرت، ثم يبقى خيار تجديده رهناً بالطرفين. وهذا العقد ينتهي بعد ثلاثة أشهر، ما يصادف مع نهاية جولتنا الأوروبية. عندئذ نكون قد انفصلنا كلياً... شخصياً ومهنياً!».

جعل الغضب البارد عينيه تتألقان كالثلج وقال بلؤم والسخرية على شفتيه: «لن تستمري ستة أشهر من دوني».

كانت توري ترتجف بعد إعلانها ما جعلها تشدّ على يديها لئلا يرى مبلغ تأثرها. ولكنها، بعد أن أعلنت الخبر، شعرت بالهدوء في كيانها.

قال بعدما لم يحتمل صمتها، وقد كسا الغضب ملامحه، وانقبضت يداه على جانبيه: «أنا الذي صنعتك كما أنت!».

فهزت رأسها بأسف: «هذا كذب صريح. لقد ساعدتني في مهنتي، وأنا شاكرة لك...».

فقال وهو يصرف بأسنانه: «لديك طريقة غريبة في إظهار ذلك».

رفعت حاجبيها وردّت: «أنا شاكرة لمساعدتك، يا روبرت لكنك لست من منحني صوتي...».

ـ ولا الشخصان البسيطان هناك.

وأشار برأسه إلى ناحية المزرعة.

فتوهجت عيناها وقالت تلومه وقد شحب وجهها: «أنت تتجاوز الحد، يا روبرت».

لوى شفتيه بلؤم: «لماذا؟ لأنني جرؤت على ذكر حقيقة أنهما ليسا والديك؟».

وهز رأسه بشكل جارح ثم أضاف: «لأنك، عندما ولدت في منتصف شهر آذار، كنت نتيجة علاقة عابرة في موسم السباق المشهور في هذه الجزيرة؟».

لم تعد يدا توري تهتزان من التأثر بل من الغضب... الغضب الذي لا يمكن السيطرة عليه تقريباً. وهذا ما يريده روبرت، أن يجرحها إلى حد أن تفقد السيطرة على نفسها. لكنه مخطىء لو ظن أن إهانته لأصلها ستغضبها.

لم يزعجها أنها متبناة، فهي تعلم أن لا أحد يحبها بقدر ما أحبها والداها بالتبنّي ثلما ودان باكانان. لا، لا يمكن لروبرت أن يجرحها أبداً بقوله إنها متبناة ولكن بإمكانه أن يثير فيها غضباً عارماً إذا قذف هذين الشخصين اللذين اختارا أن يكونا أبوين لها، بأي إهانة أو كلمة استخفاف!

وقالت بسأم: «أظن أن من الأفضل أن تذهب يا روبرت، قبل أن تقول شيئاً نأسف له نحن الإثنين».

فقال هازئاً: «أحقاً؟».

ـ حقاً.

وقابلت نظراته الغاضبة من دون أن تطرف عيناها. أخذ نفساً عميقاً، محاولاً التحكّم بغضبه بجهد بالغ، ورقّ صوته مرة أخرى بعد أن أدرك أنه تجاوز الحد: «دعينا لا نتشاجر يا توري. يمنعنا تاريخنا الحافل معاً من أن نتجادل الآن. إذا كنت حقاً مصممة على أن تأخذي هذه السنة....».

فقاطعته بحزم: «سنة على الأقل، يا روبرت. وأنا أرجو من كل قلبي أن يكون التاريخ الذي تشير إليه هو تاريخنا المهني فقط».

وتابعت بعنف دون أن يجمد غضبها: «لقد انتهت أيّ علاقة بيننا منذ مدة طويلة».

ورفعت رأسها متحدية. فبدت على شفتيه ابتسامة أسف: «هل أفهم من هذا أن جوابك على طلب الزواج هو لا أخرى؟».

لقد أدرك أن الغضب لن يفيده بشيء، فعاد إلى ظرفه، ولكن بعد فوات الأوان بالنسبة إلى توري!

ـ لم أغير رأيي منذ ثلاثة أسابيع.

وأضافت بجمود: «أنصحك بأن تعود إلى لندن، وسألحق بك لنبدأ جولتنا».

فاقترب منها: «وعد؟».

ـ لم أخلف وعداً لجمهوري من قبل، ولن أبدأ بذلك الآن.

مجرد التفكير في قضاء مدة طويلة مع روبرت يسبب لها قشعريرة اشمئزاز.

لقد أدركت متأخرة، أن روبرت إنسان حقير أناني، لكن لم يسبق له أن هاجم أبويها شخصياً كما فعل الآن، خصوصاً بعد أن استمتع بضيافتهما. وقد وجدت ذلك، أمراً لا يغتفر.

كانت تعلم أنه سيبذل جهده خلال الأشهر الثلاث القادمة لتغيير رأيها بالنسبة إلى تجديد عقده معها كمدير أعمالها. ستكون الأشهر الثلاثة شاقة للغاية . . . !

ـ فلنحجز مكاناً لك للسفر من الجزيرة اليوم، إن مغادرة الجزيرة اليوم أسهل بكثير من القدوم اليها.

كانت على حق. واستطاعت أن تحجز في رحلة العودة لروبرت إلى لندن عصر اليوم. رفضت أن تأخذه بالسيارة إلى المطار بل طلبت له سيارة أجرة، متحججة بازدحام السير بسبب السباق.

وقف روبرت عند باب السيارة المفتوح، ثم قال لها بهدوء: «آسف لثورة طيعي هذا الصباح».

كانت واثقة من أنه آسف، ليس لأنه جرحها بكلامه، بل لأنه أدرك أنه تجاوز حده. فقالت بصوت متعب: «وأنا أيضاً. لكننا، على الأقل، أصبحنا نعرف موقف كل منا من الآخر».

تنهد روبرت ومدّ يده يلامس خدها برفق وقال عابساً بحزن: «إذا كان ثمة عزاء لي، فأنت الشخص الوحيد الذي يجعلني أفقد التحكم في نفسي بهذا الشكل».

بصفته مدير أعمال ڤيكتوري كاتان، استطاع أن ينال الكثير من الإحترام على مدى السنوات، وقد استخدم ذلك لمصلحته. في الواقع، قلة هم الأشخاص الذين واجهوه بكلمة لا. وقد أغاظه إلى أقصى حد أن تواجهه توري الآن. كما أن رفضها استمرار التعاون بينهما سيجرده من القوة التي اكتسبها.

أجابت: «الأمر ليس كذلك. أنا . . . ماذا؟».

وسكتت فجأة عندما جذبها روبرت إليه فجأة ليحضنها.

ما الذي يفعله؟

أخذت توري تدفعه عنها دون جدوى. كانت ذراعاه كالفولاذ حولها.

تباً له! مع حياته المرفهة، وحبه للطعام الفاخر، لم تدرك أنه بتلك السيطرة والاستبداد جسدياً.

وعندما استمر عناقه دون نهاية، انتبهت إلى أمر آخر. رأت سيارة قادمة نحوهما . . . .

أخيراً، رفع روبرت رأسه وقد بان النصر على ملامحه قبل أن يلتفت نحو الصوت.

كانت سيارة جاغوار.

وجوناثان ماغواير وراء عجلة القيادة . . . ووجهه عاصف كالرعد.

***

٧ ـ تائهة في الضباب

التفتت توري باتهام إلى روبرت دون أن تنخدع برفعه حاجبيه ببراءة، ثم قالت وهي تصرف بأسنانها، بينما وقفت سيارة الجاغوار على بعد خطوات منها: «فعلت هذا قصداً».

فقال لها ضاحكاً دون أثر للندم: «أخبرتني أن جوناثان ترك الجزيرة. كل شيء جائز في الحب والحرب، كما يقول المثل».

فتوترت شفتاها وتمتمت: «بما أن لا حب بيننا على الإطلاق، أظننا أعلنّا الحرب للتوّ».

والتفتت حين سمعت صوت باب الجاغوار ينفتح ثم يصفق بعنف.

كان جوناثان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً أسود، مخفياً عينيه المعبّرتين خلف نظارات شمسية. بدا واضحاً من فمه المتوتر، أن مزاجه لم يتحسن منذ الليلة الماضية.

ولماذا يتحسّن وقد وصل لتوّه ليراها في عناق محموم مع روبرت!

هتفت تحييه وهي تبتعد بحزم عن روبرت لتعلن باهتمام بالغ: «جوناثان. ها قد وصلت في الوقت المناسب لتقول وداعاً لروبرت قبل أن يستقل الطائرة إلى بيته».

فقال روبرت: «التزامات العمل».

التفت جوناثان قليلاً، ومن وراء هذه النظارات السميكة، افترضت توري أنه ينظر إلى روبرت، وقال دون اهتمام: «وداعاً يا روبرت».

بدا روبرت شديد الرضا عن نفسه، كما فكرت توري والغضب يغلي

في داخلها. فقد رأى جوناثان قادماً قبلها بعدة دقائق، لهذا عانقها بذلك العنف.

سيدفع روبرت ثمن ذلك في ما بعد. قررت هذا وهي تبتسم لجوناثان: «هل لك بالدخول لتناول القهوة؟».

كانت تعلم أنها وجوناثان قد وصلا إلى نوع من التفاهم الليلة الماضية. إنه اعتراف بوجود تجاذب بينهما، وقد أفسد مجيء روبرت غير المنتظر، ذلك. أما تظاهره المتعمّد بعواطف مشبوبة فقد أزّم هذا الوضع.

أجاب جوناثان: «بكل تأكيد. لا تدعنا نعطلك يا مونتغمري عن طائرتك».

ابتسم روبرت لتوري بعدم اكتراث: «سأتصل بك حال وصولي إلى لندن».

فقالت له بتوتر: «لا تزعج نفسك. إذا اختفيت، فسيذاع الخبر في أخبار الساعة السادسة».

قهقه روبرت ضاحكاً دون اكتراث، وقال لجوناثان بإعجاب: «يا لها من فتاة تحب المزاح».

فتمتمت بحيث لم يسمعها سوى روبرت: «لم أكن أمزح».

ـ أعلم هذا.

وقرص ذراعها بخفة قبل أن يصعد إلى المقعد الخلفي في سيارة الأجرة ويغلق الباب خلفه.

انحنت توري تطل عليه من النافذة وهي تقول له موبخة: «هل لك أن تبلغ باميلا حبي؟».

توتر فم روبرت عند ذكر اسم المرأة التي شاركته غرفته في الفندق منذ ثلاثة أسابيع، وقال: «لم أرها منذ ذلك الحين».

ويبدو أنه كان منتبهاً إلى أن جوناثان يقف على بعد قدم احدة منه، حتى وإن لم يستطع أن يسمع حديثهما الخافت. فقالت: «يا لها من

محظوظة».

نظر روبرت إليها بعينين ضيقتين: «أتعلمين؟ أنا لا أعتبر حديثنا السابق قد انتهى».

فهزت كتفيها: «الأمر عائد إليك، لكنني أؤكد لك أن الموضوع قد انتهى من وجهة نظري».

لقد حسمت أمرها ولن تغير رأيها. ومن سخرية القدر أن يساعدها تعقّب روبرت لها على اتخاذ هذا القرار. منذ عدة أشهر، عرض عليها مخرج عالمي دور البطولة في استعراض موسيقي جديد يأمل في أن يعرضه في لندن خلال ستة أشهر، ويمكنها أيضاً أن تكتب الأغاني التي ستؤديها.

حينذاك شكرت ستيفن جايمس على عرضه لكنها أوضحت له أنها ليست ممثلة، وأن من الأفضل أن يعرض هذا الدور على ممثلة. لكن ستيفن لم يشأ أن يقتنع برفضها فقال لها إنه كتب الدور لها.

كانت، رغم شكوكها، مغنية لا أكثر! لم تستطع أن تنكر أنها شعرت بالغرور لهذا العرض، وإمكانية القبول به ابتدأت تنمو وتزهر في ذهنها. أثار اشمئزاز روبرت أن المشروع لم يكن يتضمن مالاً وفيراً، كما أنه سيبقيها في لندن لفترة طويلة ويلزمها بالحضور إلى المسرح ست ليالٍ في الأسبوع.

لكن توري تعرف كل هذا، ولم يكن ترددها بسبب أي من هذه الأسباب. كل ما في الأمر أنها لم تشأ ببساطة أن تخذل جمهورها أو ستيفن جايمس. من ناحية أخرى، كان المشروع يشكل تحدياً لها وفرصة لترى إن كان بإمكانها أن تكون أكثر مما هي عليه الآن. بعد خمس سنوات من العمل اعترفت بأنها جاهزة للتغيير الذي سيحررها إلى الأبد من استبداد روبرت. . .

قال روبرت عابساً وهو يربت على كتف السائق لينطلق به إلى المطار: «سنتحدث في هذا الموضوع لدى عودتك إلى لندن. . ».

وعندما انطلق، استدارت توري إلى جوناثان بابتسامة مشرقة لكنه لم يبادلها ابتسامتها: «قهوة؟».

أومأ برأسه فجأة ثم تبعها إلى المطبخ. وعندما جلسا إلى مائدة المطبخ، سألها فجأة: «والداك ليسا هنا؟».

كانت توري تحضّر القهوة وتسكبها لهما: «أبي أخذ أمي إلى الطبيب ليطمئن إلى كاحلها. لماذا؟».

ورفعت حاجبيها وهي تجلس أمامه إلى المائدة وهي تتابع: «هل تخاف من أن تمكث هنا وحدك معي؟».

فقال بلهجة جارحة وبازدراء واضح: «لا. لكنني اتصلت قبل أن أعود من راسمي فأجابني المجيب الآلي مرة أخرى. بدا واضحاً أن والديك ليسا هنا ليجيبا على أي اتصال، وأنت. . . حسناً، يبدو أنك كنت مشغولة!».

كانت لهجة الازدراء في صوته توحي بانشغالها مع روبرت، فسألته متهكمة: «هل اتصلت لسبب معين؟ أم أنه مجرد اتصال اجتماعي ودود؟».

هل الأمر مستعجل ما اضطره إلى الاتصال من راسمي، وهي مدينة تبعد سبعة أميال شمال الجزيرة؟ لم يخطر ذلك في بالها!

ـ لا، تباً. . .

وأخذ نفساً عميقاً ليسيطر على جوابه الغاضب، وتبع ذلك صمت غير مريح. ماذا حدث لهذا الرجل، لقد أوضح بصراحة أمس، أنها لن تراه اليوم. وإذا به يتصل هاتفياً وحين لم يجد جواباً أتى بنفسه. . .

كان الرجل يناقض قراراته باستمرار! عند وصوله إلى هذا البلد، أخبرها أنه يريد أن يبقى وحده، وإذا به يأتي إلى المزرعة مراراً خلال أربعة أيام، كما دعاها إلى منزل أخته. وها قد جاء إلى هنا مرة أخرى بعدما أخبرها بتأجيل موعدهما المقرّر لهذا النهار. إنها لا تستطيع مجاراة تقلباته.

وتنهدت: «لا أستطيع أن أفهمك، يا جوناثان...».

ـ وأنا لا أستطيع.

ووقف ثم أخذ يحملق فيها: «ذلك الرجل، مونتغمري، يبدو أن له عليك دالة وحق...».

فقاطعته: «إنه مدير أعمالي، إذا كنت حقاً تريد أن تعلم».

بدا موقف هذا الرجل الإتهامي، بعد نفاق روبرت، كثيراً عليها. وحملقت في جوناثان وهو يشرف عليها.

ـ أحقاً؟

ـ نعم، حقاً.

لم تصدق أن هذا الحديث يدور بينهما. لو أنها لم تكن تعرف جوناثان، لقالت إنه يغار من روبرت... والله يعلم أن هذا ما يرجوه روبرت! لكنها تعرف جوناثان أكثر منه...

ابتسم دون بهجة: «وطريقة إدارته لك واضحة».

ـ لماذا... أنت...

ووقفت هي أيضاً، وسارت حول المائدة بغضب رافعة يدها لكي تضربه.

لكن جوناثان أمسك بيدها بسهولة وأنزلها شابكاً أصابعه الطويلة بأصابعها، وقرّب جسدها منه.

أخذا يحملقان في بعضهما. كان قريباً جداً من وجهها، فقال عابساً: «أرى عينيك لامعتين ووجهك متوهجاً، وإن يكن من الغضب. ويمكنني بسهولة، أن استسلم لإغراء... أنا أيضاً».

تمتمت توري بفم حازم: «جرّب ذلك».

فاشتد ضغط أصابعه قبل أن يلوي ذراعها برفق خلف ظهرها، فالتصق جسده بها وجعلها واعية تماماً لصحة كلامه.

أتراها متلهفة إلى أن يعانقها؟

آه، نعم! إنها تريد أن يعانقها جوناثان كما لم تفعل من قبل. ما عليها سوى أن تكون بقربه لتعلم ذلك. ولكن، ماذا يريد هو؟

مد يده يلامس خدها وذقنها قبل أن يعانقها. كان عناقه عنيفاً متملكاً سلب من توري كل قدرة على التنفس

لا بد أن هذا هو الفرق، كما رأت توري حالمة والعناق يطول ويطول، وقد توقفت أنفاسها تماماً، ولفّها ظلام مبهم، جعل حواسها تتركز عليه وحده.

أطلقت زفرة عميقة ووهنت ساقاها، ودار رأسها. لم تكن تشعر بغير جوناثان. لم تشعر قط ببهجة مماثلة وانتشرت الحرارة في جسدها وهي تسترخي بوهن.

كادت تنفجر من السعادة التي شعرت بها.

ـ جوناثان، أنا...

وقبل أن تنهي ما أوشكت أن تقول، إذا به يبعدها عنه فجأة.

شتم بصوت خافت وهو يتخلل شعره الأشعث بأصابعه.

لماذا توقف فجأة؟ لماذا أبعدها عنه بهذا الشكل؟ ما الذي...؟

قال عابساً وكأنه يجيب عن تساؤلها الصامت: «سمعت هدير سيارة في الخارج. عاد والداك من زيارة الطبيب».

لم تسمع صوت السيارة لكنها تقبّلت تبريره.

كانت ضائعة في المشاعر المحرقة التي أثارها جوناثان في كيانها!

ولكن إذا سمع جوناثان صوت السيارة، فهذا يعني أنه لم يكن غارقاً مثلها في مشاعر محمومة.

نظر إليها وقال وهو يتأملها: «من الأفضل أن تصعدي إلى غرفتك لتغسلي وجهك قبل أن يدخل والداك».

بدت متوهجة الوجه ومرتبكة، ومشعثة الشعر بفعل العواطف المحمومة التي تبادلاها... أو تلك التي ظنت أنهما تبادلاها. كانت تنظر

إلى جوناثان فوجدت شعره مسترحاً إلى الخلف، فيما ملامحه متجهمة. . . من الصعب أن يتصوّر المرء أنه كان يفعل أي شيء عدا شرب القهوة في الدقائق العشر الأخيرة!

أمسكها من كتفيها بحزم وأدارها باتجاه الردهة وهو يقول آمراً: «إذهبي يا توري، وأنا سأشاغل والديك إلى أن تعودي».

أطاعته توري وخرجت متعثرة من المطبخ لتصعد إلى غرفتها. استندت إلى الباب بضعف وهي تسمع والديها يدخلان، ويدهشان لرؤية جوناثان وحده في المطبخ. ما الذي حدث بالضبط؟

كان جوناثان يعانقها وتجاوبت معه دون شك! ولكن هل كان جوناثان مثلها؟ كان راغباً فيها، ولكن هل رغبته تلك هي نتيجة مشاعر محمومة أم نتيجة غضب مكبوت بسبب اعتقاده بوجود علاقة حميمة بينها وبين روبرت؟

طبعاً كانت نتيجة الغضب، كما أخذت تعنّف نفسها وهي تتأوّه باشمئزاز. ألم يخبرها جوناثان قبل أن يعانقها أنه يريد أن يديرها كما يبدو أن روبرت يديرها؟

لقد استجابت له بأي حال، لأنها أرادت ذلك، فالغضب كان آخر ما يجول في ذهنها وهي بين ذراعيه.

كانت حمقاء. . . غبية حمقاء. . . فتاة عاطفية. . . ؟

وابتلعت ريقها بصعوبة، شاعرة بوجهها يشحب. إنها تحب جوناثان ماغواير. . .

كيف حدث ذلك؟ ولماذا؟ . . .

توجّهت إلى سريرها تستلقي عليه. إنها تحب جوناثان. . . كيف ولماذا، سؤالان غير مهمين. . . فقد كان حبها حقيقة! حسناً، لقد قمت ببعض الأمور الغبيّة في حياتك، يا توري بوكانان، كما أخذت تعنّف نفسها، ولكن لا بد أن هذا الأمر يتوّجها كلها.

كانت تسمع غمغمة الأصوات في المطبخ. كيف يمكنها أن تنزل إليهم الآن وتتصرف بشكل طبيعي وقد أدركت لتوّها أنها تحبه؟

ولكن، هل يمكنها ألاّ تنزل؟ لا بد أن أبويها استغربا عدم تواجدها مع ضيفهم عند دخولهما. . . رغم ثقتها بقدرة جوناثان على اختراع سبب معقول لذلك! إن عليها أن تنزل إليهم، وبسرعة.

كيف يمكنها أن تواجه جوناثان مرة أخرى؟ يكفي ذوبانها بين ذراعيه وإظهارها لتلك المشاعر المحمومة من دون إضافة إدراكها لحبّه! لكنه لا يعلم ذلك. . .

طبعاً لا يعلم. لقد استجابت له، لكنها لم تخبره عن شعورها نحوه.

ولن تفعل أبداً، قررت هذا وهي تستبدل قميصها بآخر. من المؤكد أنه لا يحبها، لكنه لن يبقى في الجزيرة أكثر من أيام، وما من سبب لينفردا ببعضهما مرة أخرى. ستحرص على ذلك لأن لا مستقبل لهما معاً. وعندما يعود إلى أميركا، ستعالج مشكلة هذا الحب غير المرغوب فيه. سمعت ضحكات أبويها وجوناثان وهي تقترب من المطبخ، بعد ذلك بدقائق، فكبحت شعوراً بالغيرة تملكها. لجوناثان حياة كاملة في أميركا لا تعرف عنها شيئاً، لذا لا يمكنها أن تغار من كل شيء أو كل فرد يشاركه جزءاً من حياته!

بادرها أبوها وهي تدخل المطبخ: «هل أنت بخير، يا حبيبتي؟».

كان أبواها يجلسان إلى المائدة مع جوناثان وأمامهم فناجين القهوة يتصاعد منها البخار.

تابع أبوها مقطباً جبينه: «لم تحرقي نفسك، أليس كذلك؟».

هزت توري رأسها وهي تنظر إلى جوناثان متسائلة أي تفسير أعطاه لأبويها بالضبط؟

نهض جوناثان ليقف قربها: «هل أنت واثقة؟ كانت القهوة ساخنة حين أرقتها على نفسك».

بهذا إذن فسّر غيابها. إنها كذبة جيدة تماماً، حتى أنها بررت سبب تغييرها ملابسها. فقالت متجنبة نظراته النافذة: «أنا بخير تماماً. ماذا قال لك الطبيب يا أمي؟».

كانت ساقاها ترتجفان، ووجهها يتوهج احمراراً، وكانت واثقة من أن عينيها تتألقان. لم تستطع أن تنظر في عيني جوناثان مباشرة لأنها تشعر بقوة نظراته المصوّبة عليها. لكنها حاولت على الأقل أن تبدو طبيعية.

ـ قال إن كاحلي بخير.

وأضافت وهي تنظر عابسة إلى الضماد الجديد: «ما زلت متضايقة ليس إلا».

ثم هزت رأسها مبتسمة بأسى: «لا بأس يا عزيزتي، قال لي الطبيب إن بإمكاني السير بشكل أفضل عندما ترحلين، أي الإثنين».

فسألها جوناثان: «هل أنت راحلة؟».

ألقت توري عليه نظرة أخرى، ثم ندمت على ذلك. إن وجهه الوسيم العابس يجعل قلبها يقفز في صدرها ويسّرع نبضها. لم يكن الرجل بحاجة إلى لمسها لتشعر بتأثيره المدمّر. كيف ستتمكن من احتمال ذلك؟ مالت برأسها ساخرة: «كما قالت أمي لتوها».

نظر إليها بعينين ضيقتين فبذلت جهداً بالغاً لكي تصمد أمامه. عليها ألاّ تدع هذا الرجل يكتشف شعورها نحوه ولو بكلمة أو إشارة، فسيكون هذا مصدر إذلال كبير لها.

تنفس بعنف وقد بدا عليه عدم الرضا لما استطاع أن يقرأه على ملامحها، ثم قال: «أشكرك مرة أخرى لضيافتك. الأفضل أن أذهب الآن. تركت الأطعمة التي تسوّقها في السيارة وعليّ أن أضعها في الثلاجة».

منذ ربع ساعة لم يكن الأمر يزعجه. ما بها تصبح مليئة بالتناقضات مثل هذا الرجل؟ من ناحية هي متلهفة لأن يرحل، ومن ناحية أخرى ها هي تغضب لأنه يريد أن يرحل. هل هذه هي مشاعر الحب؟ إذا كان الأمر

كذلك فهي مسرورة لأنها لم تشعر به من قبل.

ـ هل لك أن تسيري معي إلى السيارة؟

طرفت بعينيها عندما أدركت أنه يتحدث إليها. تسير معه إلى السيارة؟ لماذا؟ لكنها أدركت السبب، وهي تشعر بالغثيان، فجوناثان يريد أن يؤكد لها أن ما حدث بينهما منذ قليل لا يعني شيئاً بالنسبة إليه.

بدا التمرد على فمها: «طبعاً».

وافقت على ذلك باختصار، متجاهلة نظرة التخمين التي تبادلها والداها وهي تتقدم جوناثان إلى الخارج. كانت تشعر به خلفها وهي تسير إلى السيارة، وتكاد تحس بحرارة جسده، وقوة نظراته على كتفيها.

عندما وصلت إلى السيارة، التفتت إليه، غير قادرة على النظر إلى وجهه خوفاً مما قد ترى على ملامحه: غضب؟ سخرية؟ شفقة؟ وتسمرت نظراتها على قميصه. لا! عليها ألاّ تفكر في ما حصل قبل قليل. فالتفكير في ما مرّا به من مشاعر محمومة، لن يقودها إلى شيء. إنه يسبب لها الألم فقط.

ـ توري...

ورفع يده فجأة يلامس خدها، فأجفلت. قال بخشونة: «هيه، أنا لن أؤذيك».

كان وجودها قربه في هذه اللحظة بالذات، يؤذيها! ربما عندما تعتاد على فكرة عدم جدوى حبها له قد تتمكن من ألاّ تشعر بالارتباك حين تكون معه في الغرفة نفسها. الآن، لا تستطيع أن تقف بقربه بهذا الشكل، فكيف إذا لمسها؟

ـ طبعاً لن تؤذيني.

ومنحته ابتسامة مشرقة، رغم أنها لم تستطع مواجهة نظراته.

ـ لماذا إذن...؟

ثم قال بفروغ صبر: «هذا غير مهم. توري، أظن أنّ علينا أن

نتحدث. . . ».

قاطعته بصلابة، متمنية لو يذهب: «ها نحن نتحدث».

ربما ستنجح كممثلة، لأنها استطاعت أن تقف هنا وتتصرف بشكل طبيعي، بينما جلّ ما تريده هو أن تهرب إلى غرفتها لتضمّد جراحها على انفراد!

فقال باحتجاج: «لا أعني هذا الحديث المؤدب قرب والديك، بل أن نتحدث بشكل حقيقي يا توري».

فقالت وهي تلوّح بيدها بعدم اهتمام: «في وقت آخر، يا جوناثان».

ـ أنت. . .

فقاطعته بتوتر: «ظننتك مستعجلاً لوضع مشترياتك في الثلاجة».

ـ كان هذا عذراً لأختلي بك وحدنا. وأنت تعلمين ذلك. . .

ـ أعلم؟ حسناً، إذا كنت تقول ذلك.

وأشارت بيدها بعدم اهتمام.

أخذ نفساً بخشونة وإحباط: «أنت تتعمدين اللامبالاة».

فقالت بعنف وهي تنظر إلى وجهه مباشرة: «وأنت مصمم على أن تجعل من الحبّة قبّة! لقد أفلت الأمر قليلاً. . . من يدنا».

سكتت قليلاً ثم عادت تقول: «هذا أمر يحدث أحياناً، ولا حاجة لأن نجعل منه قضية دولية!».

فردد قولها مشمئزاً: «أحياناً؟ حسناً إنه لا يحدث لي! لو لم يعد والداك حينذاك، لتطوّرت الأمور أكثر!».

هل كانت الأمور لتتطوّر فعلاً؟ وأحست توري برجفة ساخنة لمجرد التفكير في هذا.

قالت متحدية إياه ببرودة لتخفي تلك الرجفة: «معك حق، كانت مشكلة، لكنها ليست نهاية العالم!».

لا يمكن أن يشكّل هذا نهاية العالم بالنسبة إليها، بل سيبقى ذكرى

جميلة تستحضرها كلما ازداد ألمها بسبب حبها له.

وبالرغم مما يظنه بها، تلك أول تجربة لها. فهي لم تنشأ في أسرة تعتبر العلاقات العابرة جزءاً من الطبيعة بل تربّت على أن الحب هو من أسس العلاقة. الرجل الوحيد الذي طالت علاقتها به في السنوات الخمس الأخيرة كان روبرت. لكنها لم تشأ أن تكون رقماً آخر على لائحته الممتلئة بالأرقام.

أجابت بعدم اكتراث: «لا تعد إلى التفكير في ذلك، يا جوناثان. إنه مجرد انجراف واندفاع، وهذا كل شيء. كنا غاضبين من بعضنا أكثر من أي شيء آخر».

وكان في هذا بعض الحقيقة. فقال مذعناً: «ربما. وقد تكونين على حق. وعلينا فقط أن ننسى ما حدث».

فتح باب سيارته وجلس خلف المقود ثم أدار المحرك. وقال بخشونة قبل أن يصفق الباب بحزم: «إلى اللقاء، يا توري».

أرغمت توري نفسها على البقاء واقفة على الطريق وهو ينطلق بالسيارة، حتى أنها استطاعت أن تلوّح له بيدها وهو يبتعد. ولم تسمح لكتفيها بأن تهبطا إلا بعد أن أدركت أنها أصبحت وحدها، فوضعت يديها على صدغيها المتألمين وهي تغالب البكاء. لقد جاءت إلى البيت آملة بأن تجد أجوبة عن أسئلتها عن مستقبلها، وإذا بحياتها الخاصة تصبح خراباً.

هي تحب جوناثان، كيف يمكن ذلك. . .؟

* * *

٨ ـ وأطبق الفخ

ـ تبدين مشغولة البال قليلاً هذا المساء، يا حبيبتي.

وابتسمت لها أمها مشجعة. كانتا معاً في غرفة الجلوس حيث كانت الأم تتابع الأخبار، بينما توري مستغرقة في الأفكار!

مشغولة البال هو تضخيم للواقع. توري في الرابعة والعشرين من عمرها، تتمتع بشهرة عالمية، ولديها من المال ما لا يمكنها إنفاقه طوال حياتها... ولكنها تعاني من غرام يائس وتحب رجلاً يظنها قادرة على الخروج معه بينما هي على علاقة غرامية بروبرت.

يا لها من ورطة! فكرت توري في سرّها.

وعندما رن جرس الهاتف في الردهة، قالت لها أمها: «هل لك أن تجيبي، يا حبيبتي؟ أبوك في الخارج».

نعم، ما دام جوناثان ليس المتكلم رغم أن ما من سبب يدفعه إلى الاتصال، فافتراقهما كان نهائياً.

ورفعت السماعة بحذر: «نعم؟».

ـ أهذا أنت يا توري؟

جاءها صوت ماديسن يرن المرح، أي ماديسن شقيقة جوناثان...

فأجابت بصوت يتكلف المرح: «أنا هي بكل تأكيد. تفضلي».

قالت ماديسن بصراحتها المعهودة: «يمكنك أن تخبريني عن حال

أخي الأكبر».

أجفلت توري. ما المفترض بها أن تجيبها؟

أجابت مراوغة: «لماذا لا تسأليه بنفسك؟».

فقالت ماديسن باشمئزاز: «لقد فعلت، لكنه يرفض التكلّم. ولهذا فكرت في الاتصال بك لأسألك إذا كنت ترينه».

هذا كثير، كما فكرت توري وهي تتأوه في داخلها. وتملكها شعور بأن جوناثان لا يحب أن تعرف أخته دقائق حياته!

وسألتها ماديسن بحذر: «كيف يبدو لك؟».

فأجابت توري بمرح: «هذا سؤال صعب لأن ليس لديّ فكرة عما كان عليه من قبل».

فتنهدت ماديسن: «صحيح. حسناً، قبل عامين، كان الجواب سهلاً. كان أخي الكبير المرح القوي الذي يمكن الاعتماد عليه».

قبل عامين... العامان مرة أخرى...!

وأجابت بأسف: «حسناً، ما زال قوياً ويمكن الاعتماد عليه، حسب قولك».

ـ والمرح؟

تنهدت توري. رأت لمحات من الهزل من جوناثان في الأيام الأخيرة، والقدرة على الضحك لكنها لا تظن أن هذا ما تعنيه ماديسن.

وأخيراً أجابت: «يبدو أن ثمة ما يشغل ذهنه».

فتنهدت ماديسن: «أما زال كذلك، كنت أرجو...».

قاطعتها توري بحزم: «ماديسن، هل أنت واثقة بشأن التحدث معي عن جوناثان؟ لا أعتقد أن الرجل الذي تعرفت إليه منذ أيام يحب أن نتحدث عنه بهذه الطريقة!».

فقالت ماديسن ضاحكة: «نعم، جوني كذلك. ولكن، ما دام لا يقول شيئاً عن نفسه، فماذا أفعل غير ذلك؟».

عبست توري: «أظن أنّ جوناثان يعتبر نفسه راشداً بما يكفي ليعتني بنفسه».

ـ هذا صحيح في ظروف أخرى. ولكن بما أن زواجي من جيدون لعب دوراً بارزاً في هذا التغيير، أشعر بالمسؤولية لما أصابه من حزن.

قطبت توري جبينها. لقد فكرت فعلاً في أن زواج ماديسن من جيدون دفع جوناثان إلى تحليل ذاته كما يفعل الآن. لكن الأمر ما زال غير مفهوم بالنسبة إليها...

ـ لم يتحدث عن أيّ من هذا معي، يا ماديسن.

ـ وبمعنى آخر، ينبغي علي أيضاً ألاّ أفعل هذا.

فوافقتها توري بمرح: «ربما هذا صحيح».

قالت ماديسن موافقة: «لا بأس، فهمت قصدك. آه، ثمة شيء آخر قبل أن أقفل الخط...».

ـ نعم؟

ـ كانت صورتك في الصحف رائعة أثناء حفلتك المرتجلة.

فأجابت توري بحذر: «شكراً».

ـ لا أظن أن الرجل الغامض الذي رافقك يوم الأحد هو جوني، أم أنه هو؟

كان عليها أن تعلم أن هذا الإتصال ليس عفوياً كما ادّعت! كان عليها أن تعلم أن ماديسن، الرائعة الجمال الموهوبة في التمثيل، ذات فطنة وذكاء بالغين...

أجابتها توري: «لماذا لا تسأليه؟».

ـ لأنني أسألك أنت.

ضحكت توري بالرغم عنها لفطنة ماديسن، وقالت تتكهن: «ألم يعطك جواباً؟».

ردّت ماديسن بسعادة: «كان هو ذلك الغامض إذن. لا بد أنك تعرفين

جوني جيداً ليمرّ عليكم في زيارات قصيرة».

لكن توري لا تعرفه على الإطلاق، في الحقيقة، إنما وقعت في غرامه فقط!

ـ أكرر يا ماديسن، ما قلته منذ دقيقة. لا أظن أن جوناثان يريدنا، أن نتحدث عنه بهذا الشكل.

ـ لكن جوناثان لن يعرف. كل الأسرة تدعوه جوني.

ـ هذا ما اعتقدته.

ـ ما عداك أنت...!

ـ جوني لا يبدو لي لائقاً له.

وأخذت تتساءل عما إذا ثرثرت أكثر مما ينبغي. ستتساءل ماديسن، لما لا يبدو لائقاً به في نظرها، وعما هو لائق إذن؟ فسارعت تضيف: «تماماً كما لم أفكر فيك قط بصفتك مادي».

ـ لا بأس، يا توري. لقد أخذت من وقتك ما يكفي ليوم واحد. يبدو أن جوني لا يعاني من قلة الطعام أو الصحبة.

فعاجلتها توري قبل أن تقفل الخط: «ماديسن!».

ـ نعم؟

أجابت ماديسن ببراءة مصطنعة، لكن توري عرفت أن ماديسن غير راضية على الإطلاق عن نتيجة حديثهما. كان آخر ما تريده هو أن تتصل هذه بأخيها لكي تسأله عن علاقته بها، فيستنتج جوناثان أنها أخبرت أخته عما حدث بينهما. وهذا ما لن تفعله أبداً. فماذا هناك لتقوله...؟

وعادت ماديسن تسألها: «نعم؟».

تنهدت توري: «ماديسن، لا تستنتجي ما لا علاقة له أبداً بالحقيقة. أمي هي التي دعت جوناثان على الغداء يوم الأحد».

فقالت ماديسن مداعبة: «لا أظنها دعته إلى دوغلاس معك مساء الإثنين».

ـ حسب ما أتذكر، هو الذي وجه الدعوة. . .

وسكتت توري فجأة وقد أدركت، بعد فوات الأوان، أي فخ وقعت فيه. فقالت تعنّفها: «هذا ليس عدلاً، يا ماديسن».

ضحكت المرأة مسرورة: «أخبريني، ألم يعزف لك جوني بعد؟».

فسألتها توري بحذر: «يعزف لي. . .؟».

ردّت ماديسن بحماسة: «لقد فعل إذن، ما رأيك؟».

وفجأة، وعت توري أنها كانت هدفاً لخطة محكمة ولكن ليس من ناحية جوناثان. . . فقد كانت دهشته وذعره واضحين عندما علم بشخصيتها الحقيقية وأنها فيكتوري كانان.

رددت بذهن شارد: «رأيي؟ رأيي بماذا؟».

فقالت ماديسن بفروغ صبر: «جوني يؤلف ويلحن الأغاني منذ سنوات. وهي جيدة، ألا تظنين ذلك؟».

جوناثان يكتب أغان ويلحّنها! أتراه كتب الأغنية التي سمعته يعزفها يوم الأحد؟ ماديسن على صواب في أن معزوفاته جميلة! أتراه كان يشير إلى التأليف عندما أخبرها مرة أنه ليس هنا في إجازة؟

سألتها فجأة ببطء: «ماديسن، هل كنت تعلمين أنني سأزور الجزيرة هذا الأسبوع؟».

فأجابت هذه بغموض: «قلت مرة إنك تعودين إلى الجزيرة في موسم السباق كلما استطعت ذلك، فظننت أنك قد تكونين موجودة».

فعادت تلحّ عليها بالسؤال: «ولكن هل علمت أنني سأكون هنا السنة؟».

ردّت ماديسن رغماً عنها: «ربما، فأمك ذكرت ذلك قبل أن تغادر الجزيرة منذ أسبوعين».

كانت ماديسن تعلم أنها ستأتي إلى بيتها هذا الأسبوع، تماماً كجيدون الذي اقترح على جوناثان الفكرة علّه يجد السلام والهدوء اللذين يحتاجهما

في الجزيرة. . .

ـ أنت تعلمين يا ماديسن، أنني لطالما كنت مؤمنة بموهبتك وبأنك امرأة قادرة. . . لكنني لم أدرك مدى قدرتك! وماذا كنت تتوقعين أن يحدث عندما نتعارف أنا وجوناثان؟

تكلّمت بعنف وقد اشتدت قبضتها على السماعة، فرددت ماديسن ببراءة: «أن يحدث؟».

تنهّدت توري: «أتعلمين يا ماديسن، أشعر بشيء من الغيظ مما أظنه خطة منك ومن جيدون. . .؟ كم سيغضب جوناثان لو علم الحقيقة؟».

ـ هل ستخبرينه؟

بعد ما حدث هذا الصباح بينهما، لم تعد توري واثقة من أنهما سيتحدثان إلى بعضهما مرة أخرى. ولكن هذا ليس هو الموضوع حقاً!

ـ أتظنين أنّ عليّ أن أفعل؟

ـ لا، إذا كان لديك عقل. وأذكر أن عقلك كبير. على أيّ كل حال، ما هو الخطأ في التوسّط في الزواج؟ خصوصاً وأنت تغنين الأغاني وجوناثان يؤلفها. رأينا، أنا وجيدون، أنكما ستنسجمان معاً.

ـ أنا لا أهتم حقاً. . . !

وسكتت توري وهي تتنفس بصعوبة لكي تتمكن من السيطرة على طبعها. فقد كانت ماديسن وزوجها جاري والديها المقرّبين: «لمعلوماتك يا ماديسن، أنت تضيّعين وقتك سدى بالنسبة إليّ وجوناثان. فقد أوضح لي أنه لا يريدني أن أسمع أياً من أغانيه. في الواقع، أخبرني بصراحة أنه يعتبر ڤيكتوري كانان مجرد غاوية للرجال ورخيصة تحسن الغناء».

شهقت ماديسن غير مصدقة: «هل قال جوني ذلك؟».

فأجابت عابسة: «تقريباً».

ـ يبدو أنه لا يُطاق.

ـ هذا تخفيف للواقع.

ـ أنا آسفة حقاً إذا تصرف جوني بفظاظة نحوك أو نحو أسرتك أثناء زيارته للجزيرة. فكرت فقط... حسناً، فلندع ما فكرت فيه، يبدو أنني كنت مخطئة. أفكر في أن اتصل بجوني واقترح عليه أن يعود إلى بيته، لأن الجزيرة، كما يبدو لم تنفعه بشيء على الإطلاق.

لم تستطع توري أن توافقها الرأي فقد أصبح اليوم أكثر راحة وتقارباً بكل تأكيد...!

ولكن، بالنسبة إلى جهود ماديسن وجيدون في التوسط للزواج...! ما الذي جعل زوجين سعيدين يفكران بأن لهما الحق في ذلك؟

وقالت لها فجأة: «إفعلي ذلك».

سألتها ماديسن مترددة: «هل ما زلنا صديقتين، يا توري؟».

فأجابت توري متنهدة: «نعم، ما زلنا صديقتين يا ماديسن. أتركيني أعثر على صديق لي بنفسي في المستقبل، إتفقنا؟».

فقالت المرأة باشمئزاز: «نعم شرط ألا يكون روبرت مونتغمري! يمكنك أن تجدي أحسن منه بكثير يا توري».

كان الزوجان يبرن في الجزيرة أثناء زيارة روبرت الأخيرة... فلم يترك لديهما انطباعاً جيداً، هما أيضاً!

ـ أظن قولك (أحسن بكثير) تقصدين به أخيك. حسناً، لا تقلقي، روبرت هو حتماً خارج اللعبة، وجوناثان أيضاً.

فقالت ماديسن: «لا بأس يا توري. فهمت الرسالة. أظنني سأتصل بجوني على كل حال. إلى اللقاء».

وأقفلت الخط، تاركة توري تحدق بقنوط في السماعة. لم تستطع أن تصدّق أن ماديسن وجيدون حاولا أن يجمعا بينها وبين جوناثان.

لكن نيتهما كانت طيبة، وعنفت نفسها على الفور. حتى وإن لم يعجبا، هي وجوناثان، ببعضهما، هناك دوماً أمل في أن تعجب بأغانيه.

كما أعجبتها تلك الأغنية التي سمعت جزءاً منها. لقد ثار جوناثان

غضباً عندما أدرك أن هناك من يستمع إليه. في الواقع، شعرت بأكثر من الإعجاب بذلك الجزء من الأغنية التي سمعتها... وأصبحت هاجساً في نفسها إلى حد أرادت معه أن تسمع بقيتها. وعندما دخل روبرت الاستديو هذا الصباح وسمعها تعزف ما تتذكره منها، قال إنها جميلة، لكنها أكثر من ذلك بكثير.

جوناثان هو مؤلفها... وملحنها!

ـ... محزن جداً... مؤسف أن يحدث هذا.

كانت أمها تقول هذا الكلام عندما دخلت توري إلى غرفة الجلوس مستغرقة في التفكير بأغنية جوناثان، فنظرت إلى أمها متسائلة عما تتحدث عنه.

قالت أمها وهي تطفىء التلفزيون: «حصل حادث آخر على حلبة السباق هذا الصباح. قتلت شابة في العشرين من عمرها على طريق الجبل. يفترض بهن أن يعرفن المخاطر... ماذا لو كانت من الزوار...؟ لم يذيعوا اسمها بعد، لأن أسرتها لم تبلَّغ. يا لأبويها المسكينين. أنا أعرف ما سأشعر به لو حدث لك مكروه».

وفجأة جمدت توري مكانها، وهي تفكر مقطبة الجبين هذا الصباح، فتاة في العشرينات، لم يذكر اسمها.

هل يمكن أن يكون جوناثان قد ظنها تلك الفتاة؟ لا، هذا غير ممكن طبعاً!

بل، يمكن ذلك، كما ناقضت نفسها على الفور. وبدأت الفكرة تتبلور. لقد تركها جوناثان، الليلة الماضية بعد زيارة روبرت المفاجئة وظنت أنها لن تراه بعد اليوم. لكنه حاول الاتصال بها هذا الصباح، وحين لم يسمع جواباً، مرّ عليها في المزرعة وهو في طريقه إلى البيت.

اعتقدت حينذاك أنه شخص لا يمكن التنبؤ بتصرفاته... لكنها لم تعد واثقة من ذلك الآن... كان الراديو في سيارته مفتوحاً هذا الصباح،

عندما أدار محرك السيارة لكي ينطلق بها. ولاحظت مدى فروغ صبره وهو يقفل الراديو. فهل سمع خبر الحادث...؟

لعلها تتخيل. ولماذا ينزعج جوناثان حتى لو كانت هي ضحية ذلك الحادث المميت؟ إنها لا تعني له شيئاً..

وسألتها أمها: «من كان المتصل يا توري؟».

ـ ماديسن، تطمئن على أخيها. اقترحت عليها أن تتصل به وتطمئن بنفسها.

ابتسمت أمها وتمتمت: «إنهما غير متشابهين، أليس كذلك؟».

ـ ماذا تعنين؟

ومالت توري برأسها بفضول، رغم أنها كانت تعلم الجواب. لقد اكتشفت في الواقع بنفسها أنهما لا يبدوان أخاً وأختاً، كما أن شخصيتيهما مختلفتان تماماً أيضاً.

فقالت أمها تؤنبها بلطف: «أنا واثقة من أنك تعلمين بالضبط ما أقصده يا توري. إنه رجل غاضب رغم جهده في إخفاء ذلك».

نسيت توري مبلغ فطنة أمها!

كان أبواها سعيدين جداً في حياتهما فهما لا يغادران المزرعة إلا في إجازة إلى انكلترا أحياناً. وكان من السهل على أناس مثل روبرت أن يفترضوا أن عقليهما ضيقان كجزيرتهما، لكنهم مخطئون. لأن أمها واحدة من أدهى الناس الذين عرفتهم توري... بإمكانها تقييم الشخص بعد مقابلة قصيرة معه.

هذه المرة كانت أيضاً على صواب، لأن جوناثان رجل مضطرب.

ـ أشك في أنه كان ليأتي إلى هنا لو لم يكن كذلك.

قالت وكأنها تصل إلى قرار مفاجىء... أدهشها: «إسمعي يا أمي، أنا... أريد أن أخرج لأتمشى».

نظرت أمها إلى الظلام في الخارج: «في مثل هذا الوقت من الليل؟».

كانت بحاجة إلى وقت للتفكير. وإذا قادها ذلك إلى منزل بيرن، فليكن. ثمة قوة غير مرئية ترغمها على الذهاب لرؤية جوناثان.

وخاطبت نفسها: كوني صادقة يا توري. أنت تريدين رؤيته.

ربما لتعلم ما إذا كانت على صواب بالنسبة إلى سبب حضوره المفاجىء هذا الصباح... إذا كانت كذلك، فهذا يعني أنه يشعر نحوها بشيء ما، هو أيضاً.

وبعد أن ارتدت سترة احتياطاً لبرودة المساء، قالت لأمها: «لن أتأخر. سأخرج من الباب الخلفي وبهذا أتفادى الصحفيين».

كان الأمر يدعو إلى السخرية في الحقيقة.... لأن الرجل الغامض على بعد أمتار منها فقط!

وعندما سارت عبر الحقل في ذلك الاتجاه، رأت الأنوار مضاءة في منزل بيرن، ما يعني أنّ جوناثان موجود.

بعد هذا الصباح، لم يكن لديها فكرة عن كيفية استقباله لها، لكن قدميها تابعتا السير في ذلك الإتجاه.

وعندما قرعت جرس الباب وانتظرت، شعرت بقلبها في حلقها. ما الذي ستقوله له؟ ماذا بإمكانها أن تقول له؟ كيف...؟

ـ نعم؟

توقفت أنفاسها حين رأت جوناثان يقف فجأة عند العتبة. بدا أكثر جفاء وبعداً من العادة... كان مرتدياً ثياباً سوداء، وينظر إليها عابساً بعينين متسائلتين.

نظرت إليه من خلال أهدابها السوداء وقد جف فمها.

ـ أنا... قلت هذا الصباح إننا بحاجة إلى أن نتحدث...

لوى فمه ساخراً: «أتذكر أنك قلت إن لا حاجة لذلك».

رفعت رأسها ونظرت إليه متحدّية: «لقد غيّرت رأيي».

أشار برأسه ساخراً وهو يخطو جانباً ليسمح لها بالدخول ثم قال ببطء

هازئاً: «تلك هي ميزة المرأة، كما أعتقد».

كانت وجنتاها متوهجتين وهي تتقدمه إلى غرفة الجلوس. لا بد أنه كان جالساً فيها عند وصولها فقد رأت قيثارته على المنضدة بينما تناثرت أوراق النوتة الموسيقية على الوسائد.

لا بد أنه كان يعزف عندما وصلت! وهي فرصة لتفتح معه الموضوع، كما تمنّت.

استدارت تواجهه، ويداها مشبوكتان أمامها: «الأغنية التي كنت تعزفها مساء الأحد...».

سألها بخشونة وقد تبددت سخريته ليحل مكانها التجهم: «وماذا عنها؟».

فرفعت يديها بشكل دفاعي: «أردت فقط أن أعلم من هو مؤلفها... ترى...».

فقاطعها بازدراء: «لكنك تعلمين من هو مؤلفها، يا توري. فقد أخبرتك أختي بذلك أثناء اتصالها هذا النهار».

كانت ترجو ألاّ تكون أخته قد اتصلت به. فتنهدت: «لا بأس، ربما لم يكن ذلك تصرفاً حسناً مني، لكنه لا يغيّر حقيقة أنني أريد أن أتحدث إليك، عن تلك الأغنية، وعن أغنيات أخرى كتبتها».

ـ لماذا؟

ـ اسمع يا جوناثان، لم يكن من السهل علي أن أحضر إلى هنا هذا المساء...

فقال بلهجة لاذعة: «ولماذا جئت إذن؟».

ومضت عيناها وقالت بحدة: «ابتدأت أعجب لذلك».

كانت هنا لأنها لم تستطع البقاء بعيدة عنه، فهي تعلم أنها تحب هذا الرجل المتغطرس العنيد والمؤذي.

ـ أتظن أنه يمكنني أن أحصل على كأس من العصير؟

وأشارت إلى كأس أمامه.

ـ لمَ لا؟

وتوجّه إلى المطبخ حيث سكب لها كأساً من العصير ثم ناولها إياه.

عبست وهي تضع الكأس على المنضدة بقرب جوناثان بعد أن شربت منه جرعة.

ـ لا أحب عصير الليمون.

ـ لماذا شربته إذن؟ سأحضر لك بدلاً منه.

وقبل أن تمنعه، خرج من الغرفة.

شعرت بعد خروج جوناثان، أنها استطاعت أن تتنفس بارتياح لأول مرة منذ وصولها. أصبح هذا الاجتماع صعباً، ولو توقّعت ذلك لما جاءت إلى هنا على الإطلاق!

نظرت إلى أوراق النوتة الموسيقية، متشوقة لأن تلقي عليها نظرة. لا بدّ أنها الأغاني التي كتبها بنفسه كما أخبرتها ماديسن. ولكن ماذا، لو عاد جوناثان وهي تنظر إليها...؟

وأجفلت لفكرة الانفجار الذي سيسببه ذلك.

ـ تفضلي.

وناولها الكأس: «ألا تجلسين؟ وبهذا يمكنني أن أجلس أيضاً».

لمَ قال هذا عندما كانت على وشك أن ترفض؟

ـ أنا مرتاحة كما أنا، لكنني أرجو أن تأخذ حريتك في الجلوس.

ربما يصبحان عندئذٍ على المستوى نفسه بدلاً من أن يقف مشرفاً عليها بهذه الطريقة المشؤومة.

سألها وهو يجلس على كرسي ينظر إليها بعينين ضيقتين: «كنت تقولين...!».

ابتلعت ريقها بصعوبة: «كنت أقول إنني أحب كثيراً أن أرى بعض الأغاني التي أخبرتني ماديسن أنك كتبتها».

خرجت هذه الكلمات من فمها بقوة قبل أن تغير رأيها.

أجاب بلطف زائف وقد نفر عرق في فكه: «وأنا سألتك لماذا؟».

فهزت كتفيها: «أنا مجرّد مغنية».

فتوترت شفتاه: «بل أنت أكثر من ذلك بقليل، كما أعتقد. وقد شعرت أختي بسرور بالغ وهي تلقي علي محاضرة قاسية عن إنتاجك الموسيقي الضخم، الذي أعرفه مسبقاً».

إذا كان يعرف ذلك، فلماذا تصرّف بتلك الفظاظة معها؟

هزّت رأسها: «أنا آسفة إذا فهمت خطأ أنني شكوتك لأختك...».

ـ لم أفهم ذلك على الإطلاق يا توري. أنا أعرف ماديسن بما يكفي لكي أدرك أنها كوّنت فكرة مسبقة عن الوضع.

ـ أي وضع؟

ـ أنا أسأل مرة أخرى عن السبب الذي يجعل ڤيكتوري كانان الشهيرة تنظر إلى عبثي في كتابة الأغاني.

ونظر إليها بعينين صلبتين. فهزت رأسها: «إذا كان ما سمعته يوم الأحد هو ما تؤلفه، فهو ليس مثيراً للرثاء. وأنا أريد أن أرى أعمالك لأنني...».

سألها بحدة وهو يقف فجأة وقد تبدّد كل ادعائه بالاسترخاء: «لأنك ماذا، يا توري؟».

بدا وجهه وكأنه نُحت من صوّان وجسمه متوتر غضباً: «لا يهمني ما قاله ماديسن أوما لم تقله يا توري. ولا أريد منك ومن أي شخص آخر أي إحسان أو شفقة...».

ـ أنا لا أتصرف بدافع الشفقة!

انفجرت بهذه الكلمات ساخطة وهي تحملق فيه بعينين ملتهبتين.

فردّ عليها غضبها: «لا أصدقك».

وقفت منتصبة وقالت: «أنا لست كاذبة».

ـ بل كذبت منذ فترة قصيرة حين أدعيت أنك لا تعرفين من كتب تلك الأغنية التي سمعتها الأحد الماضي.

أخذت نفساً حاداً: «لم تكن تلك كذبة بل محاولة لبقة مني...».

فقال بازدراء: «لكنك فشلت في تلك المحاولة!».

ـ هذا واضح. يا إلهي، يا جوناثان، هل أوصلك الحزن على نفسك إلى حد جعلك لا تصدق عندما يظهر لك أي شخص اهتماماً مخلصاً؟

فارتفع صوته غضباً: «أنا لست حزيناً على نفسي على الإطلاق».

صرخت غير مصدقة: «إذن، فأنت تتظاهر بذلك بشكل جيد».

ـ وما الذي تعرفينه أنت عن ذلك؟

تحداها بهذا القول وهو ينظر إليها بغطرسة. فقالت وهي تصرف بأسنانها: «كان عليّ أن أمضي معك دقائق، لأعرف مشكلتك».

سألها بصوت ذي نعومة خطيرة: «أحقاً؟ وما هي مشكلتي بالضبط؟».

وكانت توري ترتجف... من الغضب وشعور آخر. نعم، كانت غاضبة من جوناثان، وغاضبة جداً. لكنها من ناحية أخرى، تريد أن تأخذه بين ذراعيها، وتبقيه كذلك حتى يتبدد من نفسه كل شعور بالإحباط.

فقالت: «لقد أخبرتك لتوّي. إنه حزن على النفس لأسباب لا أعرفها...».

فرد بازدراء بالغ: «هذا واضح».

عندئذٍ، قالت مشجعة: «أخبرني إذن. تكلم يا جوناثان!».

لم يتحرك، ومع ذلك، بدا واضحاً أنه انطوى على نفسه عاطفياً.

ـ حتى الآن، يبدو لي أن أحاديثنا السطحية لم تنجح.

وسمّرتها عيناه الضيقتان حتى تحرك أخيراً وسار ليقف قريباً منها بشكل خطر وتمتم قبل أن ينحني ويعانقها: «أظنني أفضّل وسائل اتصالنا الأخرى».

تمتم بذلك قبل أن ينحني ويعانقها.

وصرخت في داخلها: ليس بهذا الشكل.

عندما جذبها إليه يحتضنها، طال عناقهما الذي تركها مقطوعة الأنفاس. وأدركت أن حبها له بهذا الشكل بدد كل قدرة لديها على المقاومة.

***

٩ ـ وداع على إيقاع الموسيقى

لا، لا تستطيع أن تسمح بهذا العناق.

ليس بهذا الشكل. ليس من دون حب!

أخذت تدفعه محاولة إبعاده عنها: «لا، يا جوناثان!».

تأوهت وهي تهز رأسها والدموع تفيض من عينيها ثم رفعت بصرها إليه ضارعة.

أظلم وجهه وبدت عيناه سوداوين تقريباً وهو ينظر إليها غير مصدق.

قال بصوت خشن وذراعاه الفولاذيتان حول خصرها: «لمَ لا؟ أنت تعلمين أننا نرغب في بعضنا».

نعم، إنها تعرف ذلك ولا تشك في مشاعرها... كما تدرك أنّ جوناثان يرغب فيها، لكنها تريد منه أكثر من ذلك. وقد ازداد يقينها بذلك، بعد الحديث الأخير بينهما.

ـ هل تظن حقاً أنني تقرّبت منك لمجرد أن أضع يدي على أغانيك؟

والتوت شفتاها بازدراء، فبدا الإجفال على جوناثان، وارتخت ذراعاه على جانبيه: «أنا أبداً لن...».

ـ لا، بل سوف تفعل ذلك.

قالت ذلك بثقة وهي تبتعد عن إغراء حضنه الدافىء ثم أضافت: «وربما أكثر بكثير!».

www.romancia.com

لم تكن واهمة بالنسبة إلى رأي جوناثان فيها.

نظر إليها صامتاً لثوانٍ، وقد أصبحت عيناه ثلجيتين: «لديك فكرة سيئة جداً عني».

ـ ليس عنك، يا جوناثان.

وهزت رأسها بابتسامة خالية من أي بهجة: «بل عن الناس عموماً».

والله وحده يعلم كم تعرضت للاستغلال! فقال بحدة: «لم أعتبر نفسي واحداً من عامة الناس».

فهزت كتفيها: «ومع ذلك، لا أريد أيّ فكرة مغلوطة. أنا... أنا بحاجة إلى مادة جديدة مختلفة عن طرازي المعتاد».

بقيت محترسة بالنسبة لهذا الموضوع لأنها لم تبلّغ ستيفن جايمس بعد أنها تنوي قبول عرضه: «أريد شيئاً يشبه ما سمعتك تعزفه الأحد الماضي».

بقيت نظراته ثلجية وهو يقول: «عذراً إن بقيت مشككاً، يا توري، لكنني أحس بتدخل أختي وزوجها خلف كل هذا».

فأجابت بفروغ صبر: «يمكنك أن تفكر بما تشاء، فأنا لست جمعية خيرية كما أنك لا تستحق الإحسان. إذا كنت أحب أغانيك وأعني إذاً، فسيكون بيننا عقد مكتوب».

بقي الشك على ملامحه: «يمكنني أن أرى مشكلة...».

فنظرت إليه بحذر: «نعم؟».

أشار برأسه ساخراً: «إنها ليست أغانٍ، يا توري. فأنا ألحّن فقط ولا أكتب كلمات».

قالت بحماسة: «أحسن، يمكنني أن أضع كلماتي على موسيقاك...».

فقاطعها بعنف: «لا أظن ذلك».

ـ لماذا؟

تمكّنت بصعوبة من أن تتحكم في صبرها إزاء عناده. لماذا يزعج نفسه في كتابة الموسيقى إذا كان لا ينوي أن يدع أحداً يسمعها؟

فقال لها بغطرسة: «لأنني لا أكتب أغاني لڤكتوري كانان».

ـ بل لتوري... أخبرتك أنني أريد أن أنشد شيئاً مختلفاً، يا جوناثان.

كانت تتحدث بهدوء، لأن ثورة أعصابهما لن تفيدهما بشيء!

فهز رأسه وقال بلهجة لاذعة: «لن تغني مع موسيقاي».

ضاقت عيناها بغضب بالرغم من تصميمها السابق على الاحتفاظ بهدوئها: «وهل تظن أن ڤيكتوري كانان ستلوّثها؟».

تنهّد جوناثان وسار ليقف بجانب المدفأة: «صدقي أو لا تصدقي، يا توري. صحيح أنني أؤلف أغنيات عاطفية، ومع ذلك ما عليك إلا أن تصغي إليها لتعلمي أنها أغنيات غرامية».

أقرت بجفاء: «وڤيكتوري كانان لا تغني أغنيات غرامية، وهذا أساس الموضوع، لأنني سأقوم بذلك!».

كانت قد قرأت مسرحية ستيفن جايمس، ورأت أن اللحن الأساسي فيها يتحدث عن الحب.

ـ أنا أفكر في.. لقد... عرض عليّ أن أكون نجمة في مسرحية يكون الدور الأنثوي الرئيسي فيها لمغنية.

فهز جوناثان رأسه: «هذا ليس ما يتوقعه جمهورك منك».

ـ أتظنني لا أعرف؟ لهذا السبب استغرق قراري وقتاً طويلاً.

ولكن بعد أن عزمت، صممت الآن على أن تسير حتى النهاية.

فسألها متكّهناً بذكاء: «هل هذا هو سبب تواجدك في الجزيرة؟».

ـ جزئياً، أليس الأمر سيّان بالنسبة إليك؟

تصلب جسمه وبدا الغموض في عينيه: «ماذا تعنين؟».

ـ من الواضح أنك جئت إلى هنا لكي تتصارع مع أفكارك...

فسألها بخشونة: «ما الذي أخبرتك به ماديسن بالضبط؟».

ـ لا يهم.

وسكتت بحزم وهي تقابل نظراته المتحدية بعينين لا تطرفان. فتمتم بمرارة: «كلامك يعني أن ماديسن لم تخبرك بشيء. سامحيني إذا وجدت بعيداً عن التصديق. . .».

قاطعته بحرارة: «لا . . . لا أسامحك. ماديسن هي أختك، لن تحطم ثقتك بها وثقة زوجها بها!».

سألها وهو يصرف بأسنانه: «ولماذا تقحمين جيدون في الموضوع؟».

فقالت بضجر: «اسمع يا جوناثان، ليس لدي فكرة عن مشكلتك مع صهرك. . .».

عندئذٍ، قال بخشونة: «مشكلتي هي أنه ليس صهري فقط!».

نظرت إليه متفحصة، لكنها لم تستطع أن تقرأ شيئاً على ملامحه. . . كانت عيناه صلبتين والغضب يكسو وجهه.

هزت رأسها: «لا أفهمك».

فسألها مشككاً: «لا؟».

ردّت بفروغ صبر: «لا. لماذا تكره جيدون إلى هذا الحد، يا جوناثان؟».

فبدا عليه الذهول لحظة، وهو يهز رأسه: «أكرهه؟ أنا لا أكره جيدون يا توري. وكيف يمكنني ذلك؟ إنه أخي!».

نطق بالجملة الأخيرة باحتجاج وفاضت مشاعره.

ـ أنا أدرك أنه بمثابة أخيك بسبب زواجه من أختك، ولكن هذا لا يعني أن لا تحبه. . .

وسكتت توري عندما عاد جوناثان يهز رأسه، فسألته مترددة: «لا؟».

ـ إنه أخي حقاً، يا توري. أنظري إلينا!

وتناول صورة لجيدون وماديسن قرّبها من وجهه: «ألا يمكنك أن تري

الشبه؟».

طبعاً يمكنها ذلك. ألم يسبق لها أن لاحظت أن جوناثان يشبه جيدون أكثر مما يشبه ماديسن؟ لكنها ظنت حينذاك أنه تشابه سطحي وبالمصادفة. . . هل يعني كلام جوناثان أن المسألة تتعدى هذا التبرير؟

وأعاد جوناثان الصورة إلى مكانها، ثم أشاح بوجهه بعينين لا تريان. كان الليل قد أسدل ستاره فقال بصوت ضعيف خافت بالكاد سمعته: «بقيت أعتقد أن مالكولم ماغواير أبي حتى بلغت الثامنة عشرة من عمري حين أخبرتني أمي الحقيقة».

ولم تشأ مقاطعته، فقد أحست أنه بحاجة إلى التحدث إلى شخص ما، حتى إليها!

ـ حتى بعد أن أخبرتني أمي الحقيقة، لم يشكّل ذلك أي فرق بالنسبة إليّ. فقد كان مالكولم يعاملني وكأنني ابنه وكذلك أمي التي تحبني. كانت ماديسن شغوفاً بنا جميعاً، ونحن جميعاً نبادلها الشعور.

وارتسمت ابتسامة حنان على محياه للحظة: «لم يكن الأمر مهماً، كما ترين».

وعاد ينظر إلى توري.

لقد بدأت تفهم. . . ذلك الحديث الذي جرى بينهما يوم تناولت العشاء معه هنا، عن والد جيدون، جون بيرن. . . وتساؤل جوناثان عما إذا كانوا جميعاً عبارة عن جينات موروثة من آبائهم. . . حينذاك ظنت أن جوناثان قلق من أن يصبح جيدون سكيراً كما كان أبوه. ولكن إذا كان جوناثان شقيق جيدون، فيكون جون بيرن أباه هو أيضاً. . . !

وقالت تتكهن: «ولكن ألم تغير علاقة ماديسن وجيدون ذلك؟».

ابتسم جوناثان بجفاء: «ما كان لهذا أن يحدث».

ـ لكنه حدث؟

فأومأ برأسه: «في سن الثامنة عشرة أدركت أن لي أخ غير شقيق. . .

هو منتج الأفلام السينمائية جيدون بيرن. . . لكنني كنت قانعاً بحظي في الحياة، بينما لم يكن هو يعلم بوجودي، وهكذا اعتبرت أن من الأفضل أن تبقى الأمور على ما هي عليه».

ـ إلى أن تقابل جيدون وماديسن.

كان جيدون منتج أفلام وماديسن ممثلة، لذا من الطبيعي أن يتقابلا في مرحلة ما من مهنتهما. . . ولكنهما وقعا في غرام بعضهما.

أطلق جوناثان نفساً مرتجفاً، وردد قولها: «ثم تقابل جيدون وماديسن. يبدو كفيلم سينمائي أليس كذلك؟ والحماقة الحقيقية تكمن في أنني أقنعت جيدون بألاّ يخسر ماديسن عندما علم الحقيقة عن أمي. . . عني. كنت على صواب، فهما يحبان بعضهما. ولكن لم يخطر في بالي أنني من سيعاني لاحقاً من عقدة عاطفية».

لم يخطر هذا في باله، ولكن كان من السهل على توري أن ترى لماذا كان جوناثان يمر بهذه الأزمة عندما وصل إلى الجزيرة. . . كما وصفتها، مازحة، بأزمة منتصف العمر!

لم تكن هذه الأوضاع مضحكةً لرجل مشوش عاطفياً.

كان مالكولم ماغواير، حسب قوله، أباً محباً، تماماً كما أحبت سوزان ديلاني ابنها. لكن هذا لم يغير الواقع، بالنسبة إلى جوناثان، واقع أنه لم يعرف أباه الحقيقي، الذي قتل في حادث سيارة قبل أن يولد. . .

وهو لم يقابل جيدون فقط، بل رحّب فيه في الأسرة بصفته صهره!

سأله توري فجأة: «هل تحدثت إلى جيدون عن. . . أبيكما؟».

فأجاب بخشونة: «لا. ولمَ أتحدث إليه؟».

ولمعت عيناه باستياء.

ـ لأنك بحاجة إلى ذلك.

فهز رأسه: «هذه سخافة».

ـ ولماذا؟

ـ لأن جون بيرن لم يكن له أيّ تأثير على حياتي. فقد مات قبل ولادتي.

ـ لكنك لم تعرف بأمره. . . إلا بعد أن أصبحت في الثامنة عشرة.

ـ وما علاقة ذلك بالموضوع؟

فقالت بلطف: «أنت لست بحاجة إليّ حقاً لأخبرك بذلك».

ضاقت عيناه ببرودة وتوترت شفتاه فيما بدت ملامحه وكأنها قُدّت من صوان. وقال بلهجة لاذعة: «منذ متى أصبحت طبيبة نفسية؟».

رفضت توري أن تبادله الإهانة، مدركة أن هذا ما أراده جوناثان. في الواقع، أراد أن يبقى الكل بعيداً عنه عاطفياً، في الوقت الحالي!

قالت بمرح: «أنا لست طبيبة نفسية. كل ما في الأمر أنني أعرف ذلك، ولو كنت في الوضع نفسه».

فقال بازدراء: «لكنك لا تعرفين، فقد أمضيت طفولتك آمنة في جزيرتك مع والدين محبين. ولديك الآن مهنتك الناجحة الآمنة. . . ولا تعلمين شيئاً عن تساؤل المرء عن هويته».

هل حان الوقت لتخبره أنها متبناة؟ وأنها لم تشعر بحاجة إلى معرفة هوية والديها الحقيقيين، لأن الأبوين اللذين اختاراها ابنة لهما، منحاها كل الأمان والثقة اللذين تحتاجهما في هذه الحياة؟

نظرت إلى جوناثان متفحصة، فرأت التوتر والألم وعدم الأمان على وجهه. . . وأدركت أن مقارنة تبنيها بوضعه لن يكون موضع ترحيب منه! كان اهتمامه منحصراً بأبويه.

قالت برقة: «قلت إذا كنت في الوضع نفسه».

فقال بقوة: «لكنك لست كذلك».

ـ ألا تظن أنك ترى المسألة من وجهة نظر خاطئة، يا جوناثان؟

ضاقت عيناه فأصبحتا كومة من الجليد: «وماذا يعني كلامك؟».

فتنهدت: «يبدو لي. . . يبدو لي».

وأضافت بعد تردد: «يبدو لي أن ما فعلته بحياتك هو المهم، وليس أصل أبويك، وما فعلا. أشك في أنك توقعت مرة أن تنجح لأن أمك هي سوزان ديلاني. . .».

فقال بخشونة: «كلا، بكل تأكيد!».

أومأت: «تماماً كما لا يفترض بك أن تتوقع الفشل لأن أباك هو جون بيرن!».

نظر إليها بصمت لثوانٍ وقد أطبق فمه وجمدت عيناه ثم تمتم بازدراء: «هل عدنا إلى التحليل النفسي؟».

فقالت: «إذا شئت».

فقال بلهجة مهينة: «لا أحب ذلك».

تنهدت توري وهي تدرك أنها لن تتمكن من النجاح مع هذا الرجل، ثم قالت بهدوء: «أخبرني يا جوناثان. ما هو شعور مالكولم برأيك حيال كل هذا؟».

فأجفل: «مالكولم؟ لا أظن. . .».

ـ لا. من الواضح، أنك لا تظن. قلت بنفسك إن هذا الرجل عاملك دوماً كإبن له، مع أنه يعلم الحقيقة منذ تزوج أمك. يبدو أن الأمر لم يشكّل فرقاً بالنسبة إلى حبه لك وفخره بك ويشهد على ذلك أنك تدير أعمال أسرته. ألا تظن أن تحليلك هذا، منذ تزوجت ماديسن جيدون، يؤثر عليه؟

راقبت المشاعر وهي تتلاحق على ملامح جوناثان المتحفّظة، ورأت بوضوح الاضطراب والألم والذعر لأن كلماتها أصابته في الصميم.

من المؤكد أنّ جوناثان ما كان ليستطيع مقابلة أبيه الحقيقي، ولكن بإمكانها أن تتصوّر شعور مالكولم بسبب تصرفات جوناثان في السنتين الأخيرتين.

وأخيراً، قال جوناثان بجفاء: «شعوري نحو جيدون جون بيرن لا يؤثر

على حبي واحترامي الدائم لمالكولم».

ـ وهل يعرف هو ذلك؟

ـ أنت. . .

فتابعت بحزم: «على أيّ حال، أنت هنا وعليه أن يدير الكازينو بنفسه».

كانت تعلم أن كره جوناثان لها سيزداد بسبب ضربها له على الوتر الحساس. ولكن إن لم يستطع جوناثان أن يحبها كما تحبه، فبإمكانها، على الأقل، أن توفّق بينه وبين أسرته.

أجابها بحدة: «لي الحق في إجازة ككل الناس».

ـ لا بد أن يخبر المرء أسرته عن وجهته لئلا تقلق عليه. لا بأس عليك لأن ماديسن وجيدون يعلمان. لكنك لم تكن مسروراً لأن جيدون أخبر زوجته أنك هنا في بيته.

فهتف: «أنا في الثالثة والثلاثين يا توري ولست في الثالثة. تجاوزت السن التي كان مفروضاً عليّ فيها أن أخبر أي شخص عن وجهتي».

هزت رأسها وردّت: «أنا في الرابعة والعشرين لكنني ما زلت أعتبر أن لأبويّ الحق في أن يقلقا علي».

فقال متهكماً: «إذن، فأنا أناني بقدر ما أنا عديم المراعاة لشعور الآخرين؟».

ـ نعم.

انتصب في وقفته، وعيناه الرماديتان ثلجيتان وملامحه عابسة، ثم أعلن بلهجة لاذعة: «لا أذكر أنني سألتك رأيك».

أخذت توري نفساً عميقاً. لا، لم يسألها رأيها، وكانت تفضل لو أن شخصاً آخر غيرها أخبره هذه الحقائق عن نفسه، لكنها لم تستطع أن تفكر في أي شخص يقوم بالمهمة. ماديسن وجيدون هما الوحيدان اللذان يعرفان مكانه، لكنهما لا يجرؤان على أن يقولا هذه الأشياء لجوناثان.

وأجابته: «لا، لم تسألني. ولكن كما سبق وأخبرتك، أنا مولعة جداً بماديسن وجيدون».

لوى فمه ساخراً: «بعكس شعورك نحوي».

ابتلعت ريقها بصعوبة. كانت مشاعر جوناثان مضطربة ما منعه من أن يدرك طبيعة شعورها، وهو ليس بحاجة إلى مشكلة إضافية حين يعلم أن توري بوكانان، المعروفة بڤيكتوري كانان واقعة في غرامه.

ـ أبداً، يا جوناثان. كنت أحاول أن أضع نفسي مكان أفراد أسرتك، ومكانك أيضاً.

ـ وما هو استنتاجك؟

لم يكن يريد أن يعرف استنتاجها! تبيّنت ذلك من لهجته المتحدية، وغطرسته البادية، وذقنه القاسية. لا، لا يريد جوناثان حقاً أن يسمع رأيها...

ـ ربما عليك أن تكون شاكراً لما لديك، يا جوناثان. أخت محبة وأخ، وابنة أخت رائعة.

ورق صوتها بحنان وهي تفكر بالطفلة كيلي ثم أضافت: «وأم من الواضح أنها تحبك كثيراً. وزوج أم يستحق الكثير من الإعجاب، رغم أنني لم أتعرف إليه قط».

ومن غير المحتمل أن تتعرف إليه.

ردّ بصوت أجش: «أنا طبعاً معجب بمالكولم».

ـ إذن، ربما عليك أن تفكّر في ما يشعر به منذ عامين. أعلم أن زواج ماديسن وجيدون كان صعباً عليك ولكنه أصعب بكثير على مالكولم، لأنه أصبح فجأة دخيلاً في أسرته.

وعبست لهذه الفكرة، كما فعل جوناثان. يبدو أنه لم ينظر قط إلى هذا الوضع المعقّد من وجهة النظر هذه.

كانت واثقة من أنه إذا فكر في هذا الأمر بعمق، فسيصل إلى القرار

الصحيح، أي أن يعود إلى أميركا ويقيم السلام بينه وبين أسرته.

وقالت له بحزم: «عليّ أن أعود الآن، يا جوناثان. سيتساءل والداي إلى أين ذهبت، فقد أخبرت أمي أنني سأتمشّى قليلاً».

لوى فمه ساخراً وهو يتبعها إلى الردهة: «وأنت لا تريدينهما أن يقلقا عليك!».

ـ تماماً.

واستدارت عند الباب الخارجي لتمنحه ابتسامة آسفة: «أتمنى من كل قلبي أن تصل إلى القرار الصائب يا جوناثان».

حتى وإن كان ذلك القرار يعني أن يبتعد عنها ويعود إلى أميركا، فلا تراه مرة أخرى!

* * *

كان نومها قلقاً، كما اعترفت توري وهي تهبط السلم في الصباح التالي. كانت متعكرة المزاج وقد جذبتها رائحة القهوة الطازجة إلى المطبخ. يبدو أن أباها استيقظ وهو يجول في أنحاء البيت رغم أن الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف.

أدركت أن جوناثان سبّب لها الأرق. فعندما أوت إلى فراشها أمس، لم تكن قادرة على التفكير في شيء سواه وما آلت إليه حياته فجأة منذ عامين.

تمنت من كل قلبها، أن يستمع إليها لصالح أسرته كلها، لكن تملّكها شعور بأن كل ما نجحت في القيام به هو أن تنفّره منها أكثر.

عندما دخلت المطبخ، رفع أبوها بصره إليها باسماً: «استيقظت باكراً، يا حبيبتي...».

ـ تعلم أنه لا يمكنني أن أقاوم رائحة قهوتك.

وسكبت لنفسها فنجاناً قبل أن تجلس قبالته.

رفع أبوها عينيه متسائلاً، ثم قال برقة: «هل هذا هو السبب

الوحيد؟».

قطّبت توري حاجبيها. ما الذي يعنيه؟ هل تبدو بهذا السوء؟ حين رأت نفسها في المرآة كانت شاحبة كما أنّ الساعة هي السادسة والنصف فقط!

هزت كتفيها: «ما الذي يمكن أن يكون غير ذلك؟».

ـ كان جوناثان هنا منذ قليل.

نظرت توري إليه بحدة وقد ازدادت تقطيباً: «جوناثان كان. . .؟».

لا بد أن النوم قد جافاه مثلها. وتمنّت أن يكون ذلك لسبب وجيه.

أومأ أبوها بشيء من العبوس: «حوالى السادسة إلا ربعاً أيّ عندما نهضت لأتفقد تلك النعجة المريضة في الحظيرة».

السادسة إلا ربعاً! وشعرت بتوجس. ما الذي جاء بجوناثان في مثل هذا الوقت من الصباح؟ فأبوها نفسه الذي يستيقظ باكراً في العادة، لم يكن لينهض في مثل هذا الوقت لولا رغبته في تفقد نعجته المريضة.

وتابع أبوها برقة: «لقد رحل جوناثان، يا توري».

فسألت بحدة: «رحل؟ إلى أين؟».

ـ إلى لندن، استقلّ طائرة الساعة السابعة.

وشعرت بوجهها يزداد شحوباً وهي تنظر إلى أبيها غير مصدقة.

جوناثان رحل! ترك الجزيرة!

بهذه البساطة حتى دون أن يقول وداعاً؟

ـ لا، ليس دون أن يقول وداعاً.

قال أبوها ذلك، ما جعلها تنتبه إلى أنها نطقت بهذا الاحتجاج بصوت مرتفع دون وعي منها.

وتابع الأب قائلاً: «هذا هو سبب مروره علينا في طريقه إلى المطار. كما أنه أعاد إلينا الطبق الذي كانت أمك قد وضعت فيه الفطائر».

وأضاف ساخراً وهو يقف: «طلب مني أن أعطيك هذا».

التقط مغلفاً كبيراً اسمر.

نظرت توري إليه دون أن تراه. لقد رحل جوناثان حقاً. . .!

كانت ترجو أن يعود إلى أميركا. ولكن ليس بهذا الشكل، ليس دون كلمة وداع!

قال أبوها ذلك عندما رآها لا تمدّ يداً لتأخذ المغلف منه: «ألن تفتحيه، يا توري؟».

نظرت إلى المغلف الكبير وكأنها تخاف أن يعضها. ما الذي تركه جوناثان لها؟ يبدو أكبر من أن يحتوي على مجرد كلمة وداع!

ارتجفت يداها وهي تأخذ المغلف من أبيها، لتفتحه وتفرغ محتوياته على المائدة.

إنها مجرد نوتات موسيقية!

ـ وهذا أيضاً.

والتقط أبوها مغلفاً صغيراً كان مع الأوراق الموسيقية.

نظرت توري إلى الأوراق ورأسها يدور. يبدو أن جوناثان ترك لها موسيقاه كلها، فما الذي كتبه في الرسالة؟

من المؤكد أنها كلمة الوداع.

ولكن ماذا غير ذلك؟

***

١٠ ـ أسعد لحظة في حياتها

ـ ألم يصل والداي بعد؟

سألت توري ستيفن بصوت أجش وهي تنظر إليه في مرآة منضدة الزينة. كانت تطمئن إلى مظهرها لآخر مرة قبل أن تخرج إلى المسرح. تبدأ المسرحية بمغنية عجوز يصعب التصديق أنها ڤيكتوري كانان، مستلقية على فراش الموت. كانت تستعيد الماضي فيما الماكياج يظهرها في السبعين من عمرها، لهذا طلبت من والديها ألاّ يأتيا إلى كواليس المسرح، قبل أن تبدأ المسرحية. أما السبب الرئيسي لهذا الطلب فهو توتر أعصابها فهي المرة الأولى التي تغامر فيها بالابتعاد عن مهنتها الأساسية كنجمة روك، ما جعل أسنانها تصطك فتعجز عن الكلام بسهولة!

ماذا لو وقعت على وجهها حالما يُرفع الستار؟ ولكن ماذا لو تجمّدت؟ ماذا لو استحالت تلك الأشهر من التدريب إلى مجرد مضيعة للوقت؟... وقتها ووقت الآخرين؟ ماذا لو خذلت ستيفن؟

لقد عرفت هذا الرجل الخمسيني جيداً في الأشهر الستة الأخيرة كزوج محب وأب رائع، وجدّ لستة أحفاد. لكنها خبرت أيضاً إتقانه لعمله فهو لا يقبل سوى الأفضل.

تقدم ستيفن منها، واضعاً يديه بحزم على كتفيها وهو يطمئنها بقوله: «والداك في مقصورتهما. إياك أن تقلقي، يا توري. ستكونين رائعة».

التفتت إليه، شاكرة ثقته فيها، ورجت من كل قلبها ألاّ تكون ثقته في غير محلها. فالأشهر الستة الماضية كانت الأكثر إرهاقاً في مهنتها، فبالرغم من أن ستيفن هو أحد ألطف وأرق الرجال الذين عرفتهم توري، إلاّ أنه أكثرهم حرصاً على الكمال.

سألت غير قادرة على مواجهة عينيّ ستيفن: «هل هو... هل معهما أحد في المقصورة؟».

شدّ على كتفيها متفهماً: «حتى الآن، لا، ولكن هناك وقت. لن يُرفع الستار قبل عشر دقائق».

كانت ممتنة لتخفيفه عنها، لكنهما يعلمان أنها مجرد كلمات فارغة. لقد ترك لها جوناثان موسيقاه منذ ستة أشهر، صبيحة مغادرته الجزيرة. لكن عندما اختارت توري ما تريده من ألحانه اتخذت الإجراءات القانونية الضرورية لذلك. ولم تشأ أن تأخذها هبة منه كما أبلغها في رسالته القصيرة المرفقة بألحانه، كما أرسلت له تذكرتين لحضور الافتتاح. مع إنها، في أعماقها، كانت تشعر بأنه لن يحضر.

لكن هذا الأمر لم يمنعها من الرجاء!

لم تكن الأشهر الستة الماضية مرهقة بسبب مشقة العمل في المسرحية. في الواقع، أنقذتها الساعات التي أمضتها في التمرين إذ كانت تقلل من وقت جلوسها للتفكير في جوناثان وحبها له الذي يحطم قلبها.

استطاع روبرت أن يلهيها قليلاً عن التفكير فيه عبر محاولات اقناعها بتغيير رأيها عن العمل بهذه المسرحية. لكن قضاءها الأشهر الستة الأخيرة في مكان واحد، أثبت لها أنها تعبت من الأسفار، من عدم تواجدها في مكان واحد مدة كافية لكي تسميه بيتاً.

عندما لم ينفعه معها التهويل، جرّب روبرت التملق والإقناع. ورغم أنها قبلت تناول العشاء معه ذات مساء، واستمعت إلى ما قاله، إلاّ أنها بقيت منيعة إزاء سحره!

لم يكن جوناثان بحاجة إلى استعمال أي سحر، ومع أنها لم تره أو تسمع عنه منذ ستة أشهر، إلا أنها ما زالت تحبه.

لكنه لم يقبل حتى التذكرتين المجانيتين اللتين أرسلتهما له لحضور الافتتاح.

لم تدرك كم كانت تعتمد على حضوره تلك الليلة حتى أخبرها ستيفن أنه لم يصل، فتملّكها الخوف الذي لا علاقة له بتوتر الأعصاب المعتاد في أول ليلة للمسرحية.

أخذت تفكر في ما منعه من الحضور. . .

قال ستيفن لها: «أزهارك جميلة».

كان هناك أزهار وبطاقات من معجبين يتمنون لها التوفيق، وورود برتقالية من والديها، وباقة من روبرت، وأزهار رائعة من ماديسن وجيدون اللذين اعتذرا عن الحضور لأنهما يصوّران فيلماً في مراكش. . . ولكن ما من بطاقة من جوناثان.

جوناثان مرة أخرى! عليها أن تصرفه من ذهنها إذا أرادت أن تجتاز ليلتها الأولى بنجاح. . .

ـ خمس دقائق، يا توري. من الأفضل أن أذهب، لا تقلقي، ستكونين رائعة.

أطلقت ضحكة مختنقة. لقد عملت من أجل هذه الليلة بجهد ومشقة. وظنت أن جوناثان سيضع أي خصومة كانت بينهما خلف ظهره لأنه سيرغب، على الأقل، في سماع ألحانه على خشبة المسرح. لكنها كانت مخطئة. . .

لقد حضر أبواها كما حدّثت نفسها وهي تسير على المسرح حيث الستار لا يزال مسدلاً. ما أكثر ما تدين به لوالديها، لذا ستقوم بهذا من أجلهما.

تلاشى كل قلقها وتوتر أعصابها عندما ارتفع الستار، وأصبحت

ماريون. كان دوراً مجهداً لأنها تؤدي دور ماريون التي تنتقل من العشرين إلى السبعين وفقاً لأحداث المسرحية. ومع مرور الدقائق والساعات، نسيت توري كل شيء ما عدا أنها ماريون.

النهاية عاطفية مؤثرة. . . ماريون في السبعين، عجوز مريضة، تلتقي أخيراً الرجل الذي أحبته منذ خمسين عاماً، وتخلت عنه من أجل مهنتها. . . هذه النهاية تركت الجمهور مصعوقاً. وإذا بالتصفيق يدويّ في المسرح مهدداً بسقوط سقفه!

قدمت باقة ضخمة من الأزهار، وأخرى من الورود الحمراء إلى توري قبل أن يُسمح لها أخيراً بأن تغادر المسرح. كانت دموع السعادة تختلط بعبير الأزهار وهي تسمح لنفسها أخيراً بأن ترفع بصرها إلى المقصورة حيث جلس والداها.

الزهو كلمة لا تعبّر بما يكفي عن الإحساس الذي كان يعلو وجهيهما، فأمها تبكي فيما ابتسامة عريضة تزيّن فم أبيها.

لوّحت لهما بيديها قبل أن تغادر المسرح أخيراً.

ـ ها قد فعلتها يا توري.

أخذها ستيفن بين ذراعيه فانسحقت الأزهار. صححت كلامه ضاحكة: «بل نجحنا معاً. ما كان لنا أن نحقق هذا من دونك».

تركها ستيفن وهو يقول: «كلنا تعبنا. سنستمر في عرض المسرحية شهوراً، يا توري، شهوراً وشهور».

لم تشعر قط في حياتها بمثل هذه السعادة والانتعاش. شيء واحد فقط يمكن أن يزيد من سعادتها. . .

لا، عليها ألاّ تفكر في جوناثان الآن! لم يرسل حتى بطاقة كما لم يتصل، فكيف يمكن أن يحضر؟ يبدو أن حياته على جزيرة مان حقبة يريد أن ينساها.

كما عليها هي أن تنساها. . .

لكن القول أسهل من الفعل. أدركت ذلك عندما لجأت أخيراً إلى غرفة الملابس، حيث لم تشعل المصباح الرئيسي، بل أخذت تحدق إلى صورتها في المرآة على ضوء مصباح صغير. بدا لها وكأنه لم يمض على توجهها إلى خشبة المسرح سوى بضع دقائق، بينما مرّت، في الحقيقة، ساعتان. ساعتان من البهجة وتحطم الأعصاب!

أطلقت صرخة صغيرة عندما تحرك ظل في العتمة فانعكست صورته في المرآة. وامتدت يد تقبض على عنقها، فاتسعت عيناها فزعاً وهي تستدير لتواجه هذا الدخيل.

ـ لا تخافي يا توري. لقد جئت مسالماً.

كان صوتاً مألوفاً إلى حد مؤلم. وخطا جوناثان خارجاً من الظلام.

حملقت توري فيه وكأنه شبح: «أين. . ؟ كيف. . . ».

لاحت على شفتيه ابتسامة فيما تألقت عيناه الرماديتان. سترته السوداء وقميصه الناصع البياض أبرزا رجولته الأنيقة. حوّل نظراته إلى الأزهار الرائعة على منضدة الزينة، والتوى فمه بأسف وهو يرى الورود المسحوقة، ثم رفع حاجبه سائلاً: «ألم تعجبك أزهاري؟».

طرفت توري بجفنيها والدوار يتملكها لوجوده المفاجىء في غرفة الملابس، ثم نظرت إلى الورود المسحوقة. لقد ظنت. . . لكن هل جوناثان هو من أرسل لها الورود الحمراء؟

قال مازحاً: «هل ظننت أنني سأدع أول ليلة تمر دون أن أراها؟».

لا الليلة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة، ولا الأخيرة. . . لكن جوناثان هنا، رغم كل شيء.

ـ هل رأيت المسرحية؟

استطاعت أخيراً أن تجد صوتها، رغم أنه بدا مضطرباً.

فأومأ: «جلست في المقصورة مع والديك».

هزت رأسها مقطبة: «لم أرك».

فضحك بهدوء: «كنت أرجو ذلك. يجب أن يكون انتباهك كله على المسرح!».

في نهاية العرض رفعت بصرها إلى والديها، ولم يكن جوناثان معهما في المقصورة. يبدو أنه قرأ بعض أفكارها إذ قال بصوت رقيق أجش: «جئت إلى الكواليس بينما كنت تستمتعين بالتصفيق الذي تستحقينه. أردت أن أقدم لك تهانيّ على انفراد».

ابتلعت ريقها بصعوبة، فما زالت أعصابها مضطربة لرؤيته في انتظارها. وتمتمت: «كان يجب أن تكون معنا على خشبة المسرح لكي تنحني أنت أيضاً للجمهور».

هز رأسه وقال بسعادة بالغة: «إنها ليلتك أنت يا توري، والداك مزهوان بك للغاية. إن مخاطرتك في تغيير مهنتك نجحت يا توري. كنت رائعة!».

أخذت نفساً مرتجفاً، وقد شعرت بأنها على وشك البكاء مرة أخرى. لم تصدق بعد أنه هنا!

وقالت بهدوء: «وماذا عنك؟ هل سارت الأمور معك على ما يرام؟».

كانت مشغولة طوال الأشهر الستة الأخيرة ما منعها من الاتصال بماديسن. وهذا يعني أنها لم تسمع خبراً عن جوناثان. . .

ـ أنا. . .

ـ توري، كنت رائعة!

صاحت أمها ووالداها يندفعان إلى الغرفة بحماسة وقد أحضرا معهما ستيفن وعدداً من زملائها. وأنبأتها الضجة في الخارج أن الاحتفال ابتدأ!

عانقت توري أمها ثم أباها، وعيناها على جوناثان. خشيت أن يخرج الآن، من دون اكمال الحديث. . .

وعندما رأت جوناثان يتوجّه إلى الباب، أمسكت بذراع ستيفن: «ستيفن، هذا ملحّن أغانينا».

وأومأت إلى جوناثان ثم قالت له بلهفة: «أظن أنه ينبغي أن يبقى ويشارك في الحفلة، ألا تظن ذلك؟».

وكان جوناثان واقفاً عند العتبة الآن، مستعداً للخروج.

ـ بكل تأكيد.

وافق ستيفن على ذلك متفهماً وهو يسير نحو الشاب. لم تر توري ما حدث بعد ذلك، فالدقائق القليلة التي حملت لها السلام والهدوء، قد انتهت. وامتلأت غرفتها بالمزيد من الممثلين المغتبطين فحجبوا الباب عن الرؤية.

اختفى جوناثان كما اختفى ستيفن هو أيضاً، لذا فضلت توري أن تكون إيجابية في تفكيرها. من غير الممكن أن يقطع جوناثان كل هذه المسافة ليختفي مرة أخرى قبل أن يتيسّر لهما أن يتحدّثا أكثر!

أعلنت بحزم بعد لحظات الابتهاج: «حان وقت تغيير ملابسنا». وتحوّل اهتمامها بجوناثان إلى قلق بعد أن مرت الدقائق من دون أثر له.

لم تدرك إلا بعد أن أصبحت وحدها مرة أخرى، أن الماكياج الذي يظهرها في دور ماريون العجوز، ما زال على وجهها. ماريون المريضة حتى الموت!

ما الذي فكر فيه جوناثان؟ وتأوهت في داخلها. كانت مجرد امرأة عجوز، فلا عجب أن يهرب منها جوناثان بهذه السرعة!

مدّت يدها تلمس إحدى الورود التي أرسلها لها جوناثان. . . تلك الورود المسحوقة، كما ذكرت نفسها بحزن. كانت تعلم أن الورود الحمراء تعني الحب، لكن جوناثان سرعان ما هرب حالما قدم لها تهانيه. . .

* * *

كانت الحفلة في أوجها عندما وصلت إلى النادي مع والديها بعد نصف ساعة. وسرعان ما تهافت المحتفلون عليهم.

قالت متأوهة عندما أحضر ستيفن زوجته ليعرفها بوالدي توري: «كل ما أرجوه هو أن يوافقهم النقاد الرأي».

ـ وكيف يمكنهم أن يفعلوا غير ذلك؟

التفتت توري بحدة عند سماعها صوت جوناثان وراح قلبها يقفز بسعادة لرؤية وجهه. لقد جاء إلى الحفلة. وقالت مازحة: «إنها المرة الثانية هذا المساء التي يسبب لي ظهورك المفاجىء نوبة قلبية».

فقهقه ضاحكاً: «إذن، دعينا نرجو أن تكون الأخيرة، أيضاً. عليك ألاّ تخافي من النقاد يا توري، فقد كنت مبدعة!».

بدا لها وكأنهما وحدهما في القاعة، بينما خفتت الثرثرة والضحكات ولم يبق سوى جوناثان. كان شعوراً رائعاً يضاهي ما حلمت به.

أومأت برأسها: «شكراً لك».

فابتسم وقال بحرارة: «تستحقين أكثر من ذلك».

حارت في ما تقول. ففي أحلامها كانت تتكلم، وتشرح أموراً كثيرة، وتخبره عن حبها له. ولكن، حين واجهت الرجل بلحمه ودمه، شعرت بعقدة في لسانها. لم تستطع أن تتكلم فيما هي تجهل شعوره نحوها!

ـ ألم تؤدي توري ألحانك بشكل رائع، يا جوناثان؟

انضم ستيفن إليهما ووضع ذراعاً أخوية حول كتفيها ثم منحها ابتسامة عريضة.

لاحظت توري كيف ضاقت عينا جوناثان وهو يرى ذراعه حول كتفيها. وخفق قلبها وهي تدرك أنه لم يكن مسروراً من هذه الإلفة.

أخذ ستيفن يتحدث إلى جوناثان بشكل عفوي دون أن ينتبه لتلك العينين الضيقتين: «سيتم تسجيل الأغاني على إسطوانات بعد أسابيع. أرجو أن تكون مستعداً للثراء والشهرة بصفتك الملحن يا جوناثان».

فردّ ببطء: «أشك في أن يصل الأمر إلى هذا الحد. على أيّ حال، توري هي النجمة هنا».

قال ستيفن: «لكنك مؤلف وملحن الأغاني».

شعرت توري بوجهها يتورد عندما نظر جوناثان إليها. حسناً، ما الذي توقعه؟ أن تنسب لنفسها هذه الألحان؟

نظرت إليه باهتمام: «ألم تقرأ العقد قبل أن توقّعه؟».

ـ تركت المحامي يتصرف بالتفاصيل، فقد منحتك الألحان يا توري لكي تفعلي بها ما تشائين.

وضاقت عيناه مرة أخرى عندما خطرت له فكرة: «هل أرسلت إليّ التذكرتين لهذه الليلة بسبب الألحان؟».

ـ أنا...

ـ هل لكما أن تعذراني؟

ساد الصمت بعد ذهاب ستيفن... لم تعرف توري من قبل ماذا تقول لجوناثان... أما الآن فخافت من أن تكون قد قالت الكثير!

ـ ظننتك فهمت بالنسبة للألحان.

ونظرت إليه مقطبة، مسرورة لأنها لم تعد تبدو امرأة عجوزاً في الماكياج المسرحي. كان شعرها منسدلاً أسود لامعاً، وثوبها الأسود الذي يصل إلى الركبتين يبرز جمال قوامها الرشيق.

فقال بخشونة: «فهمت ماذا؟».

فهزت رأسها: «لا يمكن أن أقبلها».

ـ لكنني منحتك إياها.

لاحت على فمها شبه ابتسامة: «لكي استعملها، نعم. لكنني لن أدّعي لنفسي شيئاً لم أصنعه. وستيفن على صواب. عندما تصدر الأسطوانات، ستصبح رجلاً مشهوراً».

ـ عظيم.

تمتم بذلك فيما كانت لهجته تنبيء بالعكس.

وهتفت فجأة: «جوناثان... كيف الأحوال في البيت الآن؟».

ـ الأحوال؟ قولي ما تعنينه حقاً، يا توري. السؤال الحقيقي هو هل توقفت عن الشعور بالأسى على نفسك؟

فهزت رأسها: «لا. أنا...».

فأجاب: «الجواب هو نعم. كنت على صواب بالنسبة إلى تأثير تصرفاتي على مالكولم. إنه أبي، ولطالما كان كذلك. ورغم الشهرة التي تقولين إنها وشيكة، أنا عائد إلى عمل الأسرة حيث مكاني وانتمائي. وعليّ أن أشكرك لأنك أريتني ذلك».

أضاف الجملة الأخيرة بحرارة. فابتلعت ريقها بصعوبة وسألته: «أنا؟ لماذا؟».

ورفعت بصرها إليه بحذر. فقال بلطف: «لماذا لم تخبريني تلك الليلة أنك متبناة؟».

لم تستطع الآن أن تواجه نظراته: «من أخبرك؟».

ـ قرأته في مكان ما...

قاطعته بحدة: «أين؟».

كانت قضية تبنّيها قد ذكرت في بداية مهنتها عندما كان الجمهور متعطشاً إلى معرفة كل شيء عنها. ولكن لا أحد يذكر مسألة تبنيها هذه الأيام.

فعاد جوناثان يكرر بحزم: «في مكان ما. لا بد أنني بدوت تلك الليلة أشبه بطفل مدلّل، يطلب ما لا يمكن أن يحصل عليه... أريد معلومات عن أبي الحقيقي، بينما أنت لا تملكين أيّ فكرة عن أبيك وأمك الحقيقيين».

ـ لم أرغب قط في معرفة ذلك، لكنني أدرك أن الناس لا يتصرفون بالطريقة نفسها.

ـ لقد تصالحت مع مالكولم وجيدون. كنت أحمق لأنني تركت الوضع يتطوّر منذ البداية. تطلّب الأمر شخصاً بعيداً عن الوضع ليخبرني

بذلك.

ـ أنا؟

وعبست وهي تتذكر ما قالته تلك الليلة.

ابتسم لها: «نعم، أنت. لا تظهري هذا القلق، يا توري. فقد أديّت لي خدمة جليلة بحديثك معي... بشكل...».

قاطعته تعتذر: «بشكل فظ؟».

فصحح كلامها: «بل بصدق تام. أظن أن تغيير مهنتك سينجح، يا توري. وقريباً سنسمع أجراس العرس، أيضاً».

فرددت بذهول: «أجراس العرس...؟».

نظر جوناثان في أنحاء الغرفة الحاشدة: «أستغرب عدم وجود مونتغمري في الاحتفال. ربما يأتي لاحقاً...».

فقالت بحزم: «لم نوجّه إليه دعوة. لا أدري لما تصورت أنه سيكون هنا. كان انفصالنا قاسياً، وهذا أقل ما يقال فيه!».

وعبست وهي تتذكر ذلك الخصام الذي حصل بعد أن وافقت على أن تقابل روبرت.

ـ انفصالكما؟ لكنني ظننت، بعد أن رأيت صورة لكما في الصحف منذ حوالى أربعة أشهر. كنتما خارجين من مطعم معاً.

لقد نسيت ذلك اللقاء العام. تذكرت تلك الصور حيث كانا يبتسمان للكاميرا، فأي منهما لا يريد أن يضيف وقوداً إلى نار إشاعة أنهما لم ينفصلا على وفاق. لم يخطر في بالها أن جوناثان سيرى هذه الصور، أيضاً... ويضع لها تفسيراً مختلفاً كلياً.

ـ أنا...

ـ توري، الصحافة تريد التقاط بعض الصور.

جاء ستيفن ليخبرها بذلك وهو يلهث قليلاً، وقد بدا أن ردة الفعل الإيجابية على مسرحيته اكتسحته: «وأنت أيضاً يا جوناثان».

وابتسم له فقال هذا ببطء: «أظنني لن أشارك، إذا لم يكن لديك مانع».

ـ بل لدي مانع.

وقبض ستيفن على توري بيد، وعلى جوناثان باليد الأخرى، ثم سار بهما إلى حيث كان مصورو الصحف.

كانت توري شاكرة للمخرج، رغم أنها لم تشعر بالمصوّرين ولا بالمقابلة التي أجريت. كانت أفكارها المضطربة تنحصر في جوناثان. هل يظن حقاً أنها وروبرت صديقان؟ هل هذا هو سبب عدم اتصاله بها أثناء الأشهر الستة الماضية؟ اليوم، بعد أن رأت جوناثان مرة أخرى، أدركت أن حبها له ما زال عميقاً، وأن الأمل بلقائه كان كل ما لديها.

همس لها عندما أصبحا حرّين: «فلنذهب ونشرب شيئاً».

بعد دقائق، نظرت اليه بفضول وسألته ببطء: «أنت تكره كل هذا، أليس كذلك؟».

بدا واضحاً فروغ صبره وضيقه أثناء التقاط الصور وإجراء المقابلة.

ـ هل كان ذلك واضحاً؟

ـ نعم، مع الأسف.

فقال بكآبة: «هذا غريب. فجزء من المشكلة التي شغلتني أثناء السنتين الماضيتين أي منذ تزوجت ماديسن من جيدون، هي الحاجة إلى التعوّد على فكرة أن جون بيرن أبي، وجيدون أخي... هذا الأمر جعلني أشعر فجأة بأنني غريب عن الأسرة، فكلهم موهوبون فنياً».

فقالت باحتجاج وتأثر: «وأنت كذلك، فألحانك رائعة».

قال ببطء وسخرية: «شكراً. من سخرية القدر، يا توري، أنني بعد أن نلت أخيراً بعض التقدير الفني، حسب قولك وقول ستيفن، يمكنني الإستغناء عنه».

ـ لا تستشهد بكلمتنا فقط. ستصدر المجلات النقدية غداً وفيها أنّ

موسيقى المسرحية لاقت استحساناً مماثلاً لما لاقته المسرحية نفسها.

سكت جوناثان لحظة، فسألته توري متكلفة المرح: «متى ستعود إلى أميركا؟».

كان جوابه يعني الكثير لها! إذا كان عائداً إلى أميركا في المستقبل القريب، فهي تشك في أن يجتمعا مرة أخرى. ولكن إذا بقي أيام عدة... أو أسابيع... فيمكنها استغلال المسرحية، لتقنعه بتناول الغداء معها على الأقل. أي شيء أفضل من عدم رؤية جوناثان لستة أشهر.

بدا الحذر فجأة على ملامح جوناثان، ثم أجاب: «ليس قبل فترة».

ـ أوه؟

رباه، ما أصعب أن تخفي حماستها.

ـ لقد أخذنا مؤخراً، كازينو في انكلترا، وأنا مسؤول عن التغييرات والتجديد الذي يحتاجه المكان. توري، التذكرتان اللتان أرسلتا لي إلى اميركا وصلتا إلى هنا، فأنا أقيم في لندن منذ شهرين.

ما أغرب أن تنطفىء الحماسة بهذه السرعة... شهران؟

أمضى جوناثان شهرين من دون أن يفكر حتى بالاتصال بها؟

وبللت شفتيها اللتين جفتا فجأة: «فهمت».

نظر إليها بعينين ضيقتين: «أحقاً فهمت؟».

فتنهدت: «أظن ذلك».

ـ أشك في ذلك يا توري، تصرفت بشكل سيء للغاية في الأسبوع الذي أمضيته في جزيرة مان. كنت متغطرساً ومهيناً للآخرين، أدينهم، وأتحامل عليهم.

ـ وماذا أيضاً؟

فضحك بصوت أبح: «ألا يكفي؟».

هزت رأسها: «لا أعني هذا. ولكن نظراً لظروفك، ربما كانت تلك التصرفات طبيعية».

فهز رأسه عابساً: «لا، لم تكن كذلك. ولأنها لم تكن كذلك...».

وسكت فجأة مكشراً.

ـ نعم؟

جلست على حافة مقعدها، متلهفة إلى أن يقول شيئاً... أي شيء!... سيمنحها ذلك الشجاعة لتقول ما تريد.

ـ كان واضحاً أنك مشغولة أثناء الأشهر الستة الماضية.

ـ رغم ذلك، كان لديّ أوقات فراغ.

ـ ظننتك تمضينها مع روبرت!

ـ والآن بعد أن عرفت الحقيقة...

تنهد بحدة: «لم يكن لديّ الحق...».

نهتفت بتأثر: «بل لديك كل الحق... جوناثان، لا أعتقد أنك تعرفني. وقد سيطرت عليك شخصيتي بصفة ڤيكتوري كاتان بحيث لم تكن واعياً لحقيقة أنني لا أخرج مع رجال لا يهمني أمرهم!».

فابتسم بكآبة: «لا يا توري، صدقيني لم أفكر في ذلك».

كآبته تلك منحتها الشجاعة لكي تقول: «جوناثان، أنا لا أهوى التلاعب بالآخرين. لقد علمني والداي أن الحب هو أهم عنصر في أيّ علاقة حميمة. ولهذا السبب لم أتورط في أيّ علاقة عابرة وعابثة».

الرعشة التي بعثتها كلماتها فيه كانت واضحة. لقد فوجىء، وأخذت عيناه تتفحصان وجهها المتوهج وأخيراً قال بخشونة: «توري...».

ـ جوناثان.

لم تستطع أن تقول أكثر... وتساءلت إن كانت قد أكثرت من الكلام. وابتلع هو ريقه بصعوبة.

ـ أنا.. هل لك أن تقابليني غداً لتتناولي الغداء معي.

انحبست أنفاسها، وأخذ نبضها يتسارع وهي تغامر قائلة: «في كل يوم من حياتي، إذا شئت».

واغرورقت عيناها بالدموع.

توهج وجه جوناثان وتأوه قائلاً: «توري، ما الذي فعلته بنا طوال الأشهر الماضية؟».

على الأقل لم ينبذها ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع: «أضعت الوقت سدى؟».

نظر حولهما، شاعراً فجأة بفروغ الصبر وسألها بصوت أجش: «هل ستمانعين إذا أخرجتك من هنا؟ أنا متلهف لأن أعانقك حتى يعجز أيّ منا عن الوقوف!».

ووضع كأسه على المنضدة وتناول يديها: «توري، أعتقد أنني كنت أحمق في أثناء الأشهر الماضية، وأريد أن أصحح ذلك».

فضحكت منفعلة: «صحّح ذلك حالاً، إذن».

وإزاء دعوتها هذه، جذبها إليه: «قبل أن أفعل ذلك، سأقبل ما عرضته عليّ للتو. تزوجيني يا ڤيكتوري كانان».

شهقت توري ونظرت إليه غير مصدّقة: «هل تعني ذلك حقاً؟».

ـ بكل كياني. الأشهر الستة الماضية كانت جهنماً بالنسبة إليّ. حينذاك لم أجرؤ حتى على الأمل في أن تبادليني شعوري نفسه.

فتساءلت بعجب: «شعورك...؟».

ورد بعنف: «أنا أحبك، يا توري أحببتك منذ رأيتك في المطار!»

قالت تحتجّ بفتور: «لكنك غضبت حين أدركت أنني جئت لأستقبلك بطلب من ماديسن!».

جوناثان يحبها! هذا أكثر مما كانت ترجو...!

ـ لم تكن تلك هي اللحظة الأولى التي رأيتك فيها يا توري.

أراح جبهته على رأسها وعيناه في عينيها: «رأيتك ما إن خرجت من قاعة الأمتعة، فأذهلني مظهرك. ربما لهذا السبب لم أرَ اللوحة الكبيرة التي كنت ترفعينها حاملة اسمي!».

وتنهد مشمئزاً من نفسه، فنظرت إليه بعينين تطفحان حباً: «ما كان أحد ليظن ذلك».

كان قلبها يغني ونبضها يتسارع. جوناثان يحبها!

ـ لا... حسناً..

وكشّر بخجل: «جئت إلى الجزيرة لأفكر... وليس لأنجذب إلى صاحبة شعر أسود وعينين زرقاوين اسمها توري بوكانان!».

ضحكت وذراعاها حول خصره وهي تسند رأسها على صدره. وعلى الفور سمعت دقات قلبه المتسارعة: «ذلك الصباح حين جئت إلى المزرعة وكان روبرت على وشك الرحيل... إنه غير مهم بالنسبة إليّ، يا جوناثان، ولم يكن قط كذلك».

طمأنته عندما شعرت بتوتر مفاجىء في جسمه: «سمعنا في التلفزيون ذلك المساء أن فتاة من المتسابقات قتلت ذلك الصباح. هل...؟».

فهتف بعنف: «يا إلهي، نعم... لقد سمعت ذلك في الراديو. لم يذكروا اسم الفتاة قبل أن تعلم أسرتها. وعندما اتصلت بالمزرعة لأرى إن كنت موجودة، لم أجد جواباً. تملكني الرعب من أن تكوني المعنية».

وأخذ يرتجف لمجرد الذكرى.

قالت باشمئزاز: «عندما وصلت حينذاك إلى المزرعة، رأيت روبرت يعانقني».

ثم أضافت: «ذاك العناق كان لإغاظتك، يا جوناثان. كان روبرت يعتبرني قطعة متاع يمتلكها. الصورة التي رأيتها لنا معاً منذ أربعة أشهر في الجريدة، كانت هي آخر مناسبة رأيته فيها... أخبرته فيها ما يمكن أن يفعله بالضبط بالعقد الجديد الذي يريدني أن أوقعه مع وكالته».

اشتدت ذراعا جوناثان حولها: «أنا مسرور لذلك. ولكن لم تجيبي على سؤالي بعد، يا آنسة باكانان».

سألته بمرح: «سؤال؟».

راحت تتساءل عما إذا شعرت بمثل هذه السعادة من قبل في حياتها: «حسناً، إذا كنت سأتناول الغداء معك بقية حياتي، فمن الأفضل أن نتزوج أولاً. ألا ترى هذا؟».

ونظرت إليه ووجهها يتألق.

ـ لا أستطيع أن أعدك بأن انتظر إلى هذا الحد. . .

وجاء صوت والد توري ليدعوهما مسروراً: «توري، جوناثان، تعالا وشاركا في الحفلة».

قالت توري لجوناثان، عالمة أن والديها سيصابان بخيبة أمل بالغة إذا اختفت الآن: «يمكنني أن انتظر إذا أمكنك أنت ذلك».

فأومأ: «لقد انتظرتك طوال حياتي، ويمكنني أن انتظر بضع ساعات بعد».

والتفت يواجه الأب: «أريد أن أسألك شيئاً، يا دان. . .».

والتفت إلى توري يغمزها قبل أن يحوّل انتباهه إلى الأب.

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه توري وهي تقف بجانبه فيما هو يطلب يدها للزواج.

الزواج!

وأخيراً، ستتزوج من الرجل الذي تحب!

هذه الليلة حقاً هي أسعد ليالي حياتها. حتى الآن. . .

***